أجاثا كريستي

موعد في بغداد

المكتبة الثقافية
بيروت - لبنان
ص.ب: ٨٧٣٢

الفصل الاول

غادر الكابتن كروسبي مبنى البنك وعلى وجهه من دلائل الارتياح ما يبدو على وجه رجل صرف لتوه شيكاً بمبلغ كبير ، واكتشف في ذات الوقت أن له رصداً اكبر مما كان يظن .

كان قصير القامة أحمر الوجه ، مشوش الشاربين ، عسكري المظهر ، يؤثر الثياب ذات اللون الصارخ ويحب النكتة الطريفة .. ولكنه كان إلى جانب ذلك انساناً مهاباً ومحبوباً ..

وسار الكابتن كروسبي في شارع اطلق عليه اسم (شارع البنك) لأنه يضم اكثر المؤسسات المصرفية في بغـــداد ، وأحس على الفور بالفارق بين الجو في داخل البنك وبينه في خارجه .

ففي البنك ، كان الهواء مكيفاً والنور هادئاً ، والسكون شاملاً فيما عدا الآلات الكاتبة ، أما الشارع فكان يسبح في أشعة الشمس المحرقة ، ويعج بالمارة وقد امتلأ جوه بالأتربة والغبار ، واختلط فيه ضجيج السيارات بصياح الباعة الجائلين رجالاً ونساء وأطفالاً ، وهم يعرضون على المارة بضائعهم من حلوى وبرتقال وموز وشفرات للحلاقة .

وكان الزحام شديداً ، والشارع غاصاً بالسيارات والعربات والحمير والمشاة .

فراح الكابتن كروسبي يشق طريقه وسط الزحام ، وتوقف لحظة ليبتاع جريدة من أحد باعة الصحف ، ثم انحدر في شارع الرشيد وهو الشارع الرئيسي الذي يشق المدينة بمحاذاة نهر دجلة .. على مدى أربعة أميال .

وفي الطريق ، تمهل الكابتن كروسبي في سيره قليلاً ليتصفح الجريدة ثم واصل سيره ، وبعد أن اجتاز نحو مائة متر ، انحرف يميناً .. وسار في زقاق ضيق يؤدي الى فناء واسع وسط مبنى كبير وانتهى الى باب في هذا الفناء عليه لافتة نحاسية . ففتح الباب ودخل ، ووجد نفسه في غرفة أعدت لتكون مكتباً .

وقف لاستقباله شاب عراقي كان يكتب على الآلة الكاتبة ، وقال وعلى شفتيه ابتسامة ترحيب :

– طاب صباحك يا كابتن .. هل من خدمة أؤديها لك ؟

– هل مستر داكن في مكتبه ؟ حسناً .. انني أعرف الطريق .

وفتح باباً ، وارتقى سلماً ، ومشى في دهليز طويل يحتاج الى النظافة .. وطرق باباً في نهاية الدهليز ، وسمع صوتاً من الداخل يقول :

– ادخل .

ودخل الكابتن كروسبي غرفة فسيحة ليس بها من الأثاث سوى مكتب ضخم .. وأريكة كبيرة ، ومائدة عليها موقد وآنية مليئة بالماء .

وكان يجلس أمام المكتب رجل مهدل الثياب .. ويبدو كانسان يائس اتلف حياته وأستسلم لمصيره وتبادل الرجلان التحية ، وقال داكن :

– هل عدت من كركوك ؟

فأومأ كروسبي برأسه علامة الايجاب، ثم انثنى الى الباب فاغلقه بعناية . وعندما عاد ، بدأ اكثر تواضعاً وأقل ثقة بنفسه مما كان عندما دخل ، بينما اعتدل داكن في جلسته وبدأ أكثر أهمية من زائره .

قال كروسبي :

- هل من جديد يا سيدي ؟

- نعم ..

وكانت بين يدي داكن ، حين دخل عليه كروسبي ، رسالة بالشفرة يعالج حل رموزها ، وما أن فرغ من ذلك حتى قال :

- سيعقد الاجتماع في بغداد .

واشعل عود ثقاب ، وأحرق الورقة التي سجل عليها ترجمة الرسالة ، حتى اذا تحولت الى رماد فركها بأصابعه قائلاً :

- لقد وقع اختيارهم على بغـــداد في النهاية ، وتقرر أن يعقد الاجتماع في العشرين من الشهر القادم . ومن واجبنا أن نعمل على أن يظل مكان الاجتماع وموعده سراً لا يعلم به أحد .

- إن الناس في الشوارع يتناقلون هذا السر منذ ثلاثة أيام ..

فابتسم داكن وقال :

- هذا صحيح . فالأسرار في بلاد الشرق ملك للجميع .. ألا ترى ذلك أيضاً يا كروسبي ؟

- نعم يا سيدي . بل وأستطيع أن أضيف أن الأسرار لا وجود لها في الشرق أو في غيره ، وقد تبينت خلال الحرب أن صبي الحلاق في لندن يعرف من الاسرار أكثر مما تعرف القيادة العامة

على كل حال ، اذا كان المؤتمر سيعقد في بغداد فلا بد أن يعلم الناس بأمره قريباً .

- وهل تعتقد يا سيدي انه سينجح ؟

- اذا كان الغرض من المؤتمر هو استعراض العضلات ، ومناقشة المبادىء والايديوليجيات فمن المحقق انه سيفشل ، وسينتهي كغيره من المؤتمرات في جو من الريب والشكوك. ولكني اعتقد أن هذا المؤتمر سوف يختلف عن سابقيه.. بسبب ظهور عنصر طارىء . ولو صحت القصة المذهلة التي رواها كارمايكل..

وكف عن الكلام فهتف كروسبي :

ـ لا يمكن أن تكون القصة صحيحة . انت نفسك قد وصفتها بأنهـــا مذهلة . .

فصمت داكن ، ومرت بذهنه ذكريات لا يمكن لمثله أن ينساها . .

. . وتذكر تعقيبه هو حين قـــال : اما أن يكون أفضل جواسيسي قد اصابه مس من الجنون . . او يكون قد قال الصدق . . وفي هذه الحالة :

واستطرد داكن يقول :

ـ كانت جميع القرائن تؤيد صدق رواية كارميكل . . ولذلك انطلق للبحث عن الأدلة التي تؤيد كلامه . . ولا أدري هل أخطأت أم أصبت حين سمحت له بالرحيل ولكنه اذا عاد الى بغداد في اليوم العشرين من الشهر القادم . . وأعاد رواية قصته ، وقدم الأدلة .

ـ الأدلة ؟

ـ نعم . الأدلة . . لقد حصل عليها .

ـ وكيف علمت ؟

ـ لقد حمل الى (صلاح حسن) الرسالة المتفق عليها بيني وبين كارميكل . . والرسالة هي (اجتاز الجمل ممر خيبر) .

وصمت داكن لحظه ثم استطرد قائلا :

ـ أن معنى هذه الرســـالة انه نجح في مهمته وحصل على الأدلة ، ولكن أولئك الذين يعنيهم الأمر . . ويهمهم الا ينجح كارميكل في اقامة الدليل قد علموا بأمر رحيله ، ومن المحقق أنهم يجدون الآن في أثره ليمنعوه من العودة . . سوف يكمنون له في الطريق ،فاذا عجزوا عن الأيقاع به ، ترصدوه هنـــا في بغداد . وضربوا سياجاً حول جميع السفارات والقنصليات للفتك به اذا حاول الأتصال بها . . أنظر .

وتناول عدداً من الصحف المبعثرة فوق مكتبه وراح يقرأ عنـاوين بعض أنبائها :

- « اغتيال رجل انجليزي كان في رحلة بالسيارة من ايران الى العراق » «مصرع تاجر كردي في كمين بالجبل » « أحد جنود الحدود يقتل كرديا يدعى عبد الله حسان ، يقـــال أنه كان يشتغل بالتهريب » .. « العثور في طريق (رواندوز) على جثة لشخص مجهول ، ثبت فيها بعد أنها جثة لسـائق سيـارة أرمني » . ومما يلفت النظر أن أوصاف جميع الضحايا في هذه الحوادث تنطبق على أوصاف كارميكل .

انهم يريدون تدميره ، ولا يتورعون عن تدمير أي شخص يرتابون في ان يكون كارميكل . ومتى وصل كارميكل إلى العراق . فـــان الخطر عليه سيكون أشد ، وسوف يتعين عليه أن يحذر جميع الناس ، من موظفي المطـار والجمارك الى خدم القنصليات والفنادق. لأن الحلقة ستضيق حوله وسيحاصر من كل جانب .

فقال كروسبي في دهشة :

— أتعتقد ذلك حقاً يا سيدي ؟

— نعم ، والادهى من ذلك أن بعض أسرارنا نحن قد تسربت ، حتى أصبحت أشك في جدوى الأجراءات التي اتخذناها لحماية كارميكل عند عودته الى العراق . . اذ من يدرينـــا أن هذه الأجراءات لم تتسرب الى العدو ؟ ومن يدرينا أنه لايوجد في منظمتنا من يعمل لحساب آخرين ؟

— هل ترتاب في شخص بعينه ؟

فهز داكن رأسه سلباً ، وظهرت دلائل الأرتياح على وجه كروسبي قال : .

— وهل من رأيك أن نمضي في طريقنا ؟

— نعم .

— هل ثمة أنباء عن كروفتون لي ؟

— أنه سيحضر الى بغداد .

وانصرف كروسبي ، وظل داكن جالســاً أمـام مكتبه .. وغمغم قائلا

بصوت خافت .

- لقاء في بغداد ..

ثم تناول قلماً . ورسم دائرة على ورقة أمامه ، وكتب في وسط الدائرة كلمة (بغداد) .. ثم رسم صورة جمل وطائرة وباخرة ، وقطار . وجميعها تتجه نحو الدائرة .

ثم رسم في ركن الورقة صورة نسيج عنكبوت ، وكتب تحته هذا الاسم: (هيلين شيل) .. ثم رسم تحت هذا كله علامة استفهام كبيرة ..

وبعد لحظة ، تناول قبعته ، وغادر مكتبه ..

وفي شارع الرشيد،مر برجلين نظرا اليه بعد أن ابتعد عنهما وقال أحدهما: من هذا الرجل ؟

فأجابه الآخر :

- أنه مستر داكن وهو يعمل في احدى شركات البترول .. رجل طيب ، ولكنه كسول ولا اعلم اذا كان يسرف في الشراب كما يقول البعض ، ولكني واثق من أنه لا ولن يصلح لشيء .

- هل لديك التقرير الخاص باملاك كروجنهوف يا آنسة شيل ؟

- نعم يا مستر مورجنتال .

وقدمت هيلين شيل التقرير الى رئيسها ..

قال :

- أظن أنه مقتنع ؟

- أعتقد ذلك يا مستر مورجنتال .

- هل جاء شواترز ؟

- انه في قاعة الانتظار .

- دعهم يبعثون به الي .

فضغطت هيلين شيل أحد الأزرار ثم قالت

- هل أنت بحاجة الي يا مستر مورجنتال ؟

ـ كلا .

فانصرفت هيلين شيل في هدوء ..

كانت شقراء بلاتينية الشعر ، لها عينان زرقاوان شاحبتان تتألقان وراء نظارة سميكة . ووجه دقيق القسمات ولكنه جامد لا يعبر عن شيء .. صفوة القول أنها لم تكن من الطراز الذي يفتن الرجال .. وانها اذا كانت قد احتلت في عملها مركزاً مرموقاً .. فالفضل في ذلك لمواهبها .. لا لجمالها وجاذبيتها .. وكان أبرز مواهبها قوة ذاكرتها . فهي لا تنسى اسماً أو رقماً . ولا تحتاج الى تسجيل تاريخ أو موعد ، وكانت فضلاً عن ذلك سريعة الخاطر ، نشيطة ، مطيعة .

وكان أوتومورجنتال مدير عام بنك مورجنتال وبراون وشيبرك يعلم جيداً ان خدمات هيلين شيل لا تقوم بمال . كان مرتبها ضخماً ولكنه كان على استعداد لأن يمنحها أية علاوة تطلبها ولم تكن هيلين شيل تعرف كل صغيرة وكبيرة عن أعماله فحسب ، وانما كانت كذلك تعرف كل شيء عن حياته الخاصة — وقد استطلع رأيها في زوجته الثانية فنصحته بطلاقها .. بل وذكرت له بالتحديد المبلغ الذي سوف تقره المحكمة كنفقة لها . وفعلت ذلك دون أن تبدي شفقة أو فضولاً ، ولم يدهش مورجنتال ، فقد كان يعلم أنها نسيج وحدها ، وأنها لا تعرف شيئاً من الأحاسيس التي تعتمل في نفوس الناس ، فهي مجرد عقل جبار يعمل لمصلحة البنك بصفة عامة ، ومصلحته هو شخصياً بصفة خاصة .

ولذلك دهش مستر مورجنتال أشد الدهشة حين قالت له هيلين وهو يهم بمغادرة المكتب أنها تريد إجازة لمدة ثلاثة أسابيع اعتباراً من يوم الثلاثاء التالي .. ولم يجد بداً من القول لها أنه يتعذر عليه اجابتها الى ما تطلب ولكنها أجابت في هدوء

ـ لا أظن ذلك يا مستر مورجنتال .. أن مس ويجات ستحل محلي وسأترك لها مذكراتي وأصدر اليها التعليمات اللازمة .

ـ هل تطلبين الاجازة لأنك مريضة يا مس شيل .

كان يعمل انه سؤال سخيف .. فـان هيلين شيل لا يمكن أن تمرض .. أن الجراثيم نفسها تحترمها ..

أجابت :

– كلا يا مستر مورجنتال ، ولكني أريد السفر لندن لزيارة أختي .

– لزيارة اختك ؟ هل لك أخت ؟

لم يكن يعرف أن لها أختاً . ولم تحدثه هيلين عن هذه الأخت حتى عندما رافقته إلى لندن في الخريف الماضي .

أجابت وهي تبتسم :

– نعم يا مستر مورجنتال .. وهي متزوجة من رجل انجليزي في المتحف البريطاني ، وستجري لها جراحة خطيرة ويجب أن أكون على مقربة منها .

وأدرك الرجل من لهجتها ان لا شيء يمكن أن يثنيها عن رغبتها في الرحيل فقال :

– ما دام الأمر كذلك فليس في استطاعتي أن أستبقيك . وكل ما أرجوه هو ان تعودي بسرعة ، فالسوق المـــالية مضطربة الى اقصى حد بسبب توتر العلاقـــات بين المعسكرين الشرقي والغربي حتى ليخشى أن تنشب الحرب في أية لحظة . والواقع . انني أتصور احيانـــاً أن نشوب الحرب قد يكون هو الحل الوحيد ... ان أعصاب النـاس تكاد أن تتمزق ، وها هم يقولون أن مؤتمرقمة سيعقد قريباً في بغداد .. الا يعلم الرئيس الأميركي انه قد يذهب ضحية اعتداء في بغداد ؟

– ستكون هناك حراسة قوية . واجراءات أمن مشددة ؟

– ومتى كانت اجراءات الأمن حائلاً دون اغتيال الساسة والزعمـاء ؟ ان سفر الرئيس الأميركي الى بغداد هو الجنون بعينه .

ثم تنهد واستطرد قائلاً :

– صحيح اننا نعيش في عالم مجنون . مجنون ..

الفصل الثاني

جلست فكتوريا جونز على أحد مقاعد حديقة فيتز جيمس في لندن وراحت تستعرض ذكرياتها وامتلأ قلبها حزناً .

أحزنها بصفة خاصة أن تلمس بنفسها مدى ما يمكن أن يتعرض له الانسان من متاعب اذا حاول ابراز مواهبه في وقت غير مناسب .

كان لفكتوريا ، كما لجميع الناس ، فضائلها وعيوبها .. فمن فضائلها أنها طيبة القلب ، نشيطة . في عملها ، شغوفة بالمغامرة ، وقد تكون هذه الخصلة الأخيرة فضيلة . ولكنها كذلك قد تكون عيباً ، خاصة إذا كانت الظروف تحتم على الانسان الحكيم ألا يجازف بشيء محقق .. من أجل شيء مشكوك فيه .

على أن أبرز عيوبها كان حبها للكذب .. فهي تكذب بكل سهولة وبساطة .. سواء افادت من الكذب أو لم تفد ، فاذا حدث مثلاً أنها تأخرت عن موعد ، فأنها لا تقنع بأن تزعم أن ساعتها أصابها خلل ، أو انها انتظرت الأوتوبيس وقتاً طويلاً دون جدوى وانما تخترع قصة تشط فيها مع خيالها الخصب فتزعم مثلاً أن فيلاً هرب من (السيرك) وعطل حركة المرور ، أو أن عصابة مسلحة هاجمت متجراً تحت سمعها وبصرها . وأنها شخصياً قد لعبت دوراً بارزاً في مساعدة الشرطة على اعتقال افراد العصابة .

كانت فارعـــة الطول ممشوقة القوام ، لها ساقان بديعتان ووجه تتحرك عضلاته بسهولة ويسر مما يساعدها على محاكاة الآخرين وتقليدهم ببراعة عجيبة. وقد كانت هذه (الموهبة) . هي علة متاعبها الحالية .

كانت تعمل كاتبة اختزال في متجر جرينهولز وسيمونز بشارع جريهولم . وقد أرادت في صباح ذلك اليوم أن تسري عن زملائها وزميلاتها في المكتب.. فلم تجد أفضل من تقليد زوجة جرينهولز حين تأتي لزيارة زوجها في مكتبه .

وكانت فكتوريا تعلم أن مستر جرينهولز قد ذهب لمقابلة محاميه ، ولن يحضر قبل ساعة على الاقل . فانطلقت تحاكي زوجته وتقلد حركاتها وصوتها، ولكنتها الأجنبية التي لم تستطع التخلص منها رغم طول اقامتها في لندن .

راحت تقول :

ـ ألا تريد أن تبتاع لي تلك الاريكة ؟ أن لدى مسز ديفتاكس أريكة مثلها .. لا تزعم أن ليست لديك نقود .. أنك تجد النقود بسهولة لكي ترافق تلك الشقراء الى المطاعم والمسارح .. هل تظن انني لا أعلم انك تعود كل ليلة وعلى وجهك آثار أحمر الشفاه انني أتركك مع شقرائك ولكني أريد الاريكة.. اتفقنا إذن .. ولا تنس معطف الفراء الذي حدثتك عنه . انه ليس من الفراء الجيد على كل حال . ولكنه من حيث الثمن لقطة لا تعوض .

وعندما وصلت فكتوريا في محاكاة الزوجة الى هذا الحد ، لاحظت أن زملاءها لا يصغون اليها . وأنهم قد كفوا عن الضحك وانصرفوا الى العمل بهمة ونشاط .. فاستولى عليها القلق ونظرت حولها لتجد نفسها وجهاً لوجه أمام مستر جرينهولز ..

كان الرجل يتأملها في صمت ، فافلتت من فمها آهـة خافتة ، ولم تجد ما تقوله ، أما الرجل فانه مضى الى مكتبه دون أن ينطق بكلمة . ودق الجرس على الفور ، فأسرعت اليه والقلم والورق في يدها لكي تسجل تعليماته وسألته متظاهرة بالبراءة :

— هل دعوتني يا مستر جرينهولز ؟

فوضع الرجل على مكتبه ثلاث ورقات من فئة الجنيه وقال :

— أظن يا بنيتي الجميلة انني رأيت ما فيه الكفاية .. وانه ليس لديك مانع من تسلم أجر أسبوع والرحيل عنا دون ابطاء .

وهمت فكتوريا بأن تخترع قصة تبرر بها سلوكها ، ولكن النظرة التي رأتها في عيني جرينهولز أقنعتها بعدم جدوى أية محاولة في هذا السبيل فعدلت عن محاولتها ، وقالت له وهي تبتسم انها تعتقد انه على حق ..

ودهش جرينهولز ، فانه لم ير من قبل موظفاً يتلقى نبأ فصله بمثل هذه البساطة ، وحاول أن يخفي دهشته بالبحث في جيوبه عن بقية من نقود .

قال :

— لا زلت مديناً لك بتسعة بنسات .

فأجابت بلطف :

— لا بأس يا مستر جرينهولز .. تقبلها هدية مني اليك ..

— سوف أبعث بها اليك .

— لا ضرورة لذلك .. أن ما يهمني هو الحصول على شهادة .

فقطب جرينهولز حاجبيه وقال مردداً :

— شهادة ؟

— نعم .

فكتب جرينهولز بضعة سطور على ورقة تحمل اسم الشركة وقدمها اليها فقرأت فيها ما يلي :

« أشهد ان الآنسة فكتوريا جونز عملت في مكتبي مدة شهرين بصفة كاتبة اختزال ، وانها لا تعرف الاختزال وتجهل الكتابة ، وقد فصلت من العمل لاننا لا نستطيع الاحتفاظ بموظفة لا تؤدي أي عمل على الاطلاق . » .

قرأت فكتوريا هذه الكلمات وقلبت شفتها وقالت في هدوء

– يخيل إلي أن خطابات التوصية تكتب بأسلوب غير هذا ..

– ولكني لم أقصد بهذه السطور أن تكون كتاب توصية .

– كان يجب على الأقل أن تقول أنني لست سكيرة .. وانني أمينة .. وهذه حقائق كما تعلم . وحبذا لو أضفت كذلك انني أكتم الأسرار ..

– تكتمين الأسرار ؟

فقابلت نظرته بجرأة ، ولم يهتز لها هدب وقالت بصوت رقيق :

– نعم .. أكتم الاسرار ..

فتذكر جرينهولز الرسائل المختلفة التي سبق أن أملاها على فكتوريا،ورأى من الحكمة أن يرضخ ، فتناول الشهادة ومزقها وكتب شهادة أخرى قال فيها :

« أشهد ان الآنسة فكتوريا جونز عملت عندي ككاتبة اختزال مدة شهرين ، وقد اضطرتنا ظروف العمل إلى ضغط عدد الموظفين والاستغناء عن خدماتها » .

وقدم لها الشهادة وهو يقول :

– ما قولك في هذه الصيغة ؟

فقرأت فكتوريا الشهادة وهزت كتفيها ، وقالت :

– ليست رائعة .. ولكني سأقنع بها .

* * *

استعرضت فكتوريا ظروف فصلها واقتنعت بأنها مؤسفة، ولكنها رفضت الاعتراف بأن فصلها كارثة .. لقد تخلصت من جوينهولز وشركته ، وهذا أمر له قيمته ، وليس ثمة ما يوحي بأن العمل الجديد الذي سوف تحصل عليه ، لن يكون أفضل من العمل مع جرينهولز .

وحاولت أن تتناسى الموضوع ، وأخرجت من حقيبتها شطيرتين كانت قد أعدتها لغدائها .. وما أن أتت عليهما حتى رأت شاباً يقترب منهـا ويجلس على

الطرف الآخر للمقعد الخشبي الذي كانت تجلس عليه .
نظرت اليه من ركن عينها ووجدته وسيماً .
كان أشقر الشعر ، أزرق العينين ، له فك بارز يدل على قوة الإرادة .
ولم تكن فكتوريا تضيق بحديث الغرباء الذين نلتقي بهم في الأماكن العامة .
كانت تعلم أن في استطاعتها أن توقفهم عند حدهم عند الضرورة .
وكانت ابتسامة رقيقة منها كافية لتشجيع الشاب على التحدث اليها ..
قال :
– طاب يومك يا آنسة .. إنه يوم جميل .. هل تأتين إلى هنا دائماً ؟
– كل يوم تقريباً .
– هذه أول مرة أجيء فيها إلى هذه الحديقة .. حقاً إنني سيء الحظ .. هل هذا الذي تتناولينه هو طعام غذائك ؟

– نعم .
– إذن دعيني أقل لك انك لا تتناولين طعاماً كافياً .. ولو انني حذوت حذوك لمت جوعاً .. ما قولك في أن نتناول الغذاء في شارع توتنهام ؟ انني أعرف هناك مطعماً صغيراً .

فقاطعته :
– كلا .. شكراً لك .. حسبي ما تناولت .. إنني لا أشعر الآن بالجوع ..
وكانت تتوقع أن يقول لها :
– إذن فلنتناول الطعام معاً في يوم آخر ..
ولكنه لم يفعل ، وإنما قال :
– أنا أدعى أدوارد .. وأنت ؟
– فكتوريا ..
– كاسم محطة فكتوريا ؟
– بل كاسم الملكة فكتوريا .

– وإسم الأسرة ؟

– جونز .

– وإذن إسمك فكتوريا جونز .

وكرر الإسم مرتين ثم قلب شفته وقال :

– الاسمان غير متلائمين .

فقالت فكتوريا في حماسة :

– وهذا رأيي أيضاً .. كان أفضل أن يكون اسمي جيني جونز .. أو ان يكون اللقب مركباً مثل ساكفيـــل ويست .. فكتوريا ويست .. أليس كذلك ؟

– جربي لقباً آخر ..

– بدفورد جونز .

– أو كريسبروك جونز ..

– أوسان كلير جونز ..

وكان يمكن أن تستمر اللعبة أطول من ذلك لولا ان الشاب نظر الى ساعته وهتف قائلاً :

– يجب أن اذهب لمقابلة رئيسي المحبوب .. وأنت ؟

– أنا عاطلة .. لقد فصلت من عملي اليوم .

فقال الشاب باخلاص :

– أنا آسف ..

– أما أنا فغير آسفة .. أولاً لأنني سرعـان ما سأجد عمـلاً .. وثانياً لأنني ضحكت كثيراً قبل أن افصل .

وروت له قصة فصلهـــا ، وقلدت مسز جرينهولز ، فأغرق ادوارد في الضحك ، ولما فرغت من قصتها قال لها أن مما يؤسف له انها لم تشتغل بالتمثيل ورحبت فكتوريا بهذا الاطراء ، ثم ذكرته بموعده مع رئيسه .. وحذرته من

التأخير حتى لا يفقد وظيفته ويصبح عاطلاً مثلها . فقال :

– صدقت .. خاصة وأنني لن أجد عملاً آخر بسهولة مثلك ..

ثم استطرد قائلاً بعد لحظة :

– جميل أن يعرف الانسان الاختزال ويجيده ..

– الواقع انني لا أجيـــد الاختزال ، ولكن من حسن الحظ أن كاتبات الاختزال ، حتى الضعيفات منهن ، يجدن دائماً عملاً بأجر لا بأس به .. وأنت ماذا تعمل ؟ أراهن انـــك اشتركت في الحرب .. وانك عملت في سلاح الطيران .

– هذا صحيح .

– هل كنت قائد احدى طائرات المطاردة ؟

– تماماً ، وقد وجدوا لي عملاً بعد الحرب ، ولكنهم لم يكلفـوا انفسهم عناء البحث عما إذا كنت أصلح لهذا العمل ام لا .. ان قيـــادة الطائرات لا تحتاج الى ذكاء مفرط .. ولكني الآن تائه بين الملفات والارقام .وقد اكتشفت في النهاية انني لا اكاد أصلح شيء .. ولكن دعينـــا من ذلك الآن .. هل تسمحين لي ..

واحمر وجهه . ولم يتم عبارتـــه ، ورأت فكتوريا في يده آلة تصوير لم تلاحظها من قبل .

استطرد قائلاً :

– هل تسمحين لي بالتقاط صورة لك ؟ خاصة وانني سأرحل غـــداً الى بغداد وقد ..

فهتفت فكتوريا بمزيج من الدهشة وخيبة الأمل :

– الى بغداد ؟

– نعم .. وأنا الآن آسف لذلك .. كنت صباح اليوم أكاد اطير فرحـــاً بهذه الرحلة .. كنت تواقاً الى مغادرة انجلترا في أسرع وقت .. ولذلك قبلت

ما عرضوه عليّ .

- وماذا عرضوا عليك ؟

عرضوا علي عملاً تافهاً لم أجد بداً من قبوله .. ورئيسي في هذا العمل - الدكتور راتبون - رجل تحيط باسمه مجموعة من الالقاب الجامعية .. ولا هدف له في الحياة إلا نشر الثقافة.. فقد انشأ مكتبات في بلاد لم يسمع عنها بعد . وترجم شكسبير وملتون الى اللغات العربية والتركية والفارسية والارمنية .. صفوة القول انه كرس حياته لنشر الثقافة الانجليزية . فهو يؤدي تماماً نفس المهمة التي يضطلع بها المجلس البريطاني .

- وماذا سيكون عملك معه بالضبط ؟

- انني أؤدي عمل السكرتير الخاص والوصيف .

فأجهز جوازات السفر ، وأحجز التذاكر ، وأتحقق من عدد الحقائب .. وأعتقد انني سأؤدي في بغداد نفس العمل .. وظيفة تافهة .. أليست كذلك؟

وكان ذلك هو رأي فكتوريا أيضاً فصمتت ولم تجب .

وهز ادوارد كتفيه وقال وهو يبتسم :

- لقد نسينا موضوع الصورة .. هل لديك مانع من ان التقط لـك صورتين .. أحداهما جانبية .. والثانية أمامية ؟

لم يكن لديها مانـع على الاطلاق ، فاعتدلت في جلستهـا ، والتقط ادوارد الصورتين ، وقال :

- مما يؤسف له حقاً ان اضطر الى الرحيل بعـد أن عرفتك .. كم أود أن أبقى .. ولكن ليس من اللائق أن أتخلى في آخر لحظة .. أليس كذلك ؟

- نعم .. ثم انك قد تجد العمل في بغداد أفضل مما تتوقع ..

فهز رأسه وأجاب :

- لا أظن ذلك .. ثم انه يخيل اليّ ان العملية كلها مثيرة للريبة ؟

- أحقاً تقول ؟

ـ لا تسأليني عما يحملني على هـــذا الظن .. انه مجرد شعور ، وسوف أدهش إذا وجدت انني كنت مخطئاً ..

ــ ومن الذي يثير ريبيتك ؟ الدكتور راتبون ؟

ـ كلا .. كلا .. فهو رجل محترم وعضو في كثير من الجمعيات العلمية .. وعلى كل حال .. فان الأمور سوف تتضح ..اظن انني يجب أن اذهب الآن.. مما يؤسف له انك لا تستطيعين مرافقتي .

ــ كنت أود ذلك من كل قلبي .

وماذا ستفعلين الآن ؟

ــ سأبحث عن عمل .. سأذهب الآن الى مكتب سان جيلد ريك بشارع (جوار) .. فقد يرشدوني هناك الى عمل مناسب .

ـ الى اللقاء إذن ..

ـ الى اللقاء يا ادوارد .. أرجو لك حظاً سعيداً .

ــ أظن انك لن تفكري فيّ ..

ـ تخطيء إذا ظننت ذلك .

ــ لكم تختلفين عمن عرفت من الفتيات ! كنت أود لو انني بقيت معـــك وقتاً أطول .

وفي هذه اللحظة دقت احدى الساعات نصفاً فصاح :

ــ يجب أن اذهب فعلا ..

وشيعته فكتوريا ببصرها حتى توارى .. ثم نهضت وغادرت الحديقــة .. وسارت في الطريق إلى شارع (جوار) .

كانت قد اتخذت قرارين ، اولهما ان تقترن بهذا الشاب الذي أحبتـه من أول نظرة ، والثاني أن تحاول السفر إلى بغداد لتلتقي به هناك .

ولكن كيف تصل الى بغداد ؟

هذه هي المشكلة التي يتعين عليها أن تجد لها حلا ..

ولم تشعر باليأس ، فقد كانت مطبوعة على التفاؤل والجرأة والعناد .

الفصل الثالث

استقبلت هيلين شيل في فندق سافوى استقبال العملاء المعروفين وسئلت عن صحة مستر مورجنتال وقيل لها ان الغرفة التي حجزت لها إذا لم تعجبها فما عليها إلا أن تقول ذلك لكي يعدوا لها غرفة أخرى .

كانت هيلين شيل في نظر إدارة الفندق تمثل الدولارات الأمريكية التي كانت بريطانيا في أشد الحاجة اليها .

وصعدت هيلين إلى غرفتها، واغتسلت واستبدلت ثيابها ، واتصلت تليفونياً برقم في (كنسنجتون) ثم غادرت الفندق واستقلت سيارة أجرة انطلقت بها إلى محل (كارتييه) تاجر المجوهرات المعروف في شارع (بوند)

وكان هناك عابر سبيل يتأمل المعروضات في أحد المتـــاجر منذ وقت طويل ، فلما رأى هيلين شيل تغادر الفندق ، القى نظرة في ساعته ثم أشار إلى سائق سيارة أجرة كان ينتظر على مقربة فـانطلق السائق بسيارتـه في أثر سيارة هيلين شيل .

وتوقفت السيارتان أمام إشارة المرور عند مدخل ميدان (الطرف الأغر) ، وأشار سائق السيارة الثانية بيده خلسة إلى سيارة خـاصة كانت تقف في شارع جانبي بمحاذاة إشارة المرور ، فتحركت السيارة الخاصة ، وسارت في

أثر سيارتي الأجرة .

وبعد أن اجتازت سيارة هيلين شيل ميدان الطرف الآخر ، انحـدرت يساراً في شارع (بول مول) ، بينما انحرفت سيارة الأجرة الثانية نحو اليمين ، وأفسحت الطريق للسيارة الخاصة لكي تتعقب هيلين شيل .

وكان بالسيارة الخاصة شخصان، شاب أشقر أمام عجلة القيادة ، وفتـاة أنيقة تجلس بجواره .

ومرت السيارة الخاصة بسرعة ، وتجاوزت سيارة هيلين شيل ، وتوقفت في شارع (بوند) لحظة قصيرة ريثما هبطت منها الفتاة .

وأومأت الفتاة برأسها لقائد السيارة مودعة ، ثم سارت على افريز الشارع ودخلت محل كارتييه وبعد دقيقة أو دقيقتين ، توقفت سيارة هيلين شيـل أمام المحل .

ونقدت هيلين السائق أجره ،ودخلت محل الجوهري وقضت بعض الوقت في انتقاء ما تريد ، ووقع اختيارها أخيراً على ماسة جميلة وزمردة رائعـة ، دفعت ثمنها بتحويل (شيك) على أحد بنوك لندن وما أن وقع نظر البائع على التوقيع في ذيل التحويل ، حتى أبرقت أسارير وجهه وقال :

— أهلاً بك يا آنسة شيل .. هل جاء مستر مورجنتال إلى لندن ؟

— كلا ..

— انني أسأل عنه لأن لدينا في الوقت الحاضر مجموعة منقطعة النظـير من أحجار الزمرد ، وأنا اعلم مبلغ اهتمامه بهذا النوع من الأحجار الكريمة ، هل يهمك أن تريها ؟

— بغير شك .

ورأت مس شيل احجار الزمرد واعجبت بها ووعدت بأن تحـدث مستر مورجنتال عنها .

أما الفتاة الأخرى التي سبقت شيل الى المتجر فانها طلبت بعض الأقراط ثم قالت للبائعة أنها ستفكر في الأمر ، وانصرفت في أثر شيل ، وتبعتهـا إلى متجر لبيع الزهور حيث طلبت هيلين باقة من الورود الحمراء وأخرى من زهور البنفسج . وأمرت بأرسالها الى عنوان ذكرته ثم سـألت عن الثمن فقالـت البائعة :

– أثني عشر جنيهاً و ١٨ شلناً .

فدفعت هيلين شيل هذا المبلغ وانصرفت ، وتبعتها الفتاة الأخرى التي قنعت بأن سألت عن ثمن باقة من زهور النرجس .

وانحدرت هيلين شيل في شارع (سافيل رو) ودخلت محل أحد كبـار الخياطين ، ورغم تخصص هذا المحل في صنع ملابس الرجـال ، الا انه يصنع تايرات السيدات بصفة خاصة للعميلات الممتازات .

ورحب بها صاحب المتجر ، واتفق معها على أن تكون التجربة الأولى بعد اسبوع ، ومن ثم استقلت سيارة الأجرة الى فندق سافوى وتبعتها سيـارة أجرة إستقلها الشاب الأول الذي تعقبها بعد أن غادرت الفندق .. ولكنه غادر السيارة بعد قليل وقصد الى الباب الخلفي الخاص بخدم الفندق وهناك وجد امرأة في مقتبل العمر تسير جيئة وذهاباً أمام الباب فسألها :

– هل فتشت الغرفة يا هورتنس ؟

– نعم .. ولم أجد ما يستحق الذكر .

اما هيلين شيل فأنها تناولت غذاءها في مطعم الفنادق ثم صعدت الى غرفتها .. فوجدتها مرتبة منسقة . واتجه بصرها على الفور الى حقيبتها . وتفقدت محتويات الأولى بسرعة ، وكانت قد تركتها مفتوحة . ثم انتقلت الى الثـانية ففتحتها .

كان يبدو كأن شيئاً فيها لم يمس.

مدت يدها . وتناولت حافظة أوراق كانت بالحقيبة .. ونثرت عليها مسحوقاً مما تستعمله في زينتها ، ثم نفخت المسحوق وامعنت النظر في غطاء الحافظة وابتسمت

كانت قد امسكت بالحافظة في الصباح ويدها لا تزال ملونة بالدهون التي تستخدمها في زينتها وكان لا بد أن يلتصق المسحوق بالبصمات التي تركتها أصابعها الملوثة بالدهون على غطاء الحافظة .

ولكنها لم تر أثراً للبصمات .

قالت :

– لقد قاموا بعملهم بمهارة حتى بصمات أصابعي قد أزيلت .

وغادرت الغرفة والفندق ، واستقلت سيارة أجرة ذهبت بها الى شارع (اينسلي) .

وامام المنزل رقم ١٧ ، توقفت السيارة ، وارتقت هيلين السلم الى الطابق الأول وقرعت جرساً .

وبعد قليل . فتح الباب ، وأطلت منه سيدة في الحلقة الرابعة من عمرها ، نظرت الى الزائرة بارتياب ثم تهلل وجهها وهتفت قائلة :

– يا الهي ! ! ان ايلزا ستسر حين تراك .. كانت واثقة من انك سوف تحضرين .. اتبعيني .

وسارت هيلين في دهليز طويل انتهى بقاعة استقبال فخمة .

وفي أحد مقاعد القاعة ، كانت تجلس إمرأة في مقتبل العمر ، ما كادت ترى هيلين حتى وثبت واقفة وهتفت :

– هيلين !

– إيلزا !

وتعانقت المرأتان ، وقالت إيلزا :

– لقد تم إعداد كل شيء . وسأذهب مساء اليوم .. وارجو ..

فقاطعتها هيلين :

– اطمئني يا إيلزا .. انا واثقة ان كل شيء سينتهي بخير .

***

تناول الرجل القصير القامة ذو المعطف الواقي من المطر سماعة احد التلفونات العامة وادار رقمها وسأل :

– شركة جراموفون (فالهالا) ؟

– نعم .

– هنا ساندرز ، اليك تقرير عن هـ . ش ، إنها وصلت من نيويورك صباح اليوم ، وابتاعت ماسة وزمردة من محل كارتييه بمبلغ مائة وعشرين جنيهاً . ثم ذهبت إلى (حين كينترت) بائعة الزهور وابتاعت باقتين بمبلغ اثني عشر جنيهاً و ١٨ شلناً ، وأمرت بارسالهما إلى احدى العيادات الطبية بميدان بورتلاند ، وقصدت بعد ذلك إلى محل (بولفورد) صانع الثياب في (سافيل رو) .. حيث طلبت ان يصنعوا لها (تاييراً) . وليس ثمة ما يثير الريبة في المحلات التي ترددت عليها . ولكن هذه المحلات ستوضع تحت الرقابة .. وقد زرنا الغرفة التي تشغلها هـ . ش بفندق سافوى .

لا شيء غير عادي . وجدت في حافظة اوراق بحقيبتها تقارير خاصة بشركة (ولفنشتاين) ليس بينها ما يهم .. كما وجدت آلة تصوير بها فيلم يبدو انه جديد لم يستخدم ، ولكننا على كل حال قد استبدلناه بفيلم مماثل . بعد ذلك ذهبت هـ . ش. لزيارة اختها في المنزل رقم ١٧ بشارع (اينسلي) .. وستنتقل اختها هذا المساء إلى عيادة طبية في ميدان بورتلاند حيث تجري لها جراحة .

سجلات العيادة الطبية تؤكد ذلك .. ليس في سلوك هـ ش. ما يريب.. إنها لم تشعر بأن هناك من يتعقبها .. وإذا كانت قد شعرت فـإنها لم تبد اهتماماً . من المحتمل أن تقضي هذه الليلة في العيادة .. وقد حجزت مكاناً في الطائرة للعودة إلى نيويورك يوم ٢٣ .

وكف الرجل القصير القامة عن الكلام لحظة ثم استطرد قائلاً :

– والرأي عندي اننا نضيع وقتاً سدى.. وان كل ما يلاحظ على هـ. ش هو انها تنفق النقود بغير حساب .

* * *

الفصل الرابع

من الانصاف لفكتوريا جونز أن نقول أنها لم تفكر لحظة واحدة في امكان فشلها . كانت واثقة أنها ستصل الى هدفها أن عاجلا أو آجلا .. صحيح أن من سوء الحظ أن الشاب الذي أحبته من أول نظرة قد رحل إلى بلد يبعـــد حوالى ثلاثة آلاف ميل حين كان يمكن أن يظل في لندن أو أن يرحل الى مكان قريب مثل بروكسل ، الا أن ذلك لن يغير من الأمر شيئاً لانها صممت على أن تلحق به حيثما يكون مهما كلفها الأمر .

راحت تفكر في هدوء وهي تسير بخطى بطيئة في شارع توتنهام .

بغداد ؟ ماذا ستفعل في بغداد ؟. لقد تحدث ادوارد عن علاقات ثقافية . ولكن العلاقات الثقافية هي مهمة منظمة (اليونسكو) .. وهذه المنظمـة لا تستخدم غير الفتيات الحاصلات على مؤهلات جامعية .

إذن يجب أن نبحث عن وسيلة أخرى .

ورأت أن تعمل بنظام . فذهبت أولاً إلى إحدى شركات السياحة . وهناك علمت أن ليس ثمة أية صعوبة في الوصول الى بغـداد ، وأنها تستطيع السفر بالطائرة أو عن طريق البحر الى ميناء البصرة ، أو أن تستقل القطار الى مرسيليا ، ثم الباخرة الى بيروت على أن تستأنف الرحلة بعد ذلك بالسيارة ..

ولكنها وجدت من الأنسب أن تسافر بالطائرة للتخلص من متاعب الحصول على التأشيرات ، ولما كانت بغداد تقع في منطقة الاسترليني فلن تكون هناك صعوبات نقدية .

ولكن المهم هو أن الرحلة ، سواء بالطائرة أو سواها ، كانت تتكلف بين ٦٠ و ١٠٠ جنيه .. نقداً وذلك ما أزعج فكتوريا .. لأنها لم تكن تملك في تلك اللحظة سوى ثلاثة جنيهات و١٢ شلناً .. عدا خمسة جنيهات في صندوق توفير البريد .

ومرت في طريقها باحدى شركات الطيران ، وسألت عما اذا كانت الشركة بحاجة الى مضيفات وكان الجواب أن الوظائف مشغولة وأن لدى الشركة مئات من طلبات الاستخدام ، وقد تمضي بضعة شهور قبل أن تطلب الشركة أصحابها لأختبارهم .

وقصدت فكتوريا الى مكتب التخديم الذي تعودت التعامل معه ، وهو مكتب (سان جتريك) ، فاستقبلتها مس سبنسر صاحبة المكتب بالابتسامة المرحة التي تدخرها عادة للفتيات اللائي يكثرن من التردد عليها .. وهتفت قائلة :

ــ أهذه أنت يا مس جونز ؟ كنت أظن أن الوظيفة التي ألحقتك بها أخيراً قد ..

ــ انني تركتها ..

ــ أحقاً ؟ إذن دعينا منها .

ــ هل لديك عمل لي ..

فراحت مس سبنسر تبحث في دفاترها ..

قالت فكتوريا :

ــ أريد عملاً في بغداد .

ــ في بغداد ؟

ونظرت اليها مس سبنسر في دهشة فقالت فكتوريا .

– نعم .. أريد الذهاب الى بغداد .

– في وظيفة سكرتيرة ؟

– ان وجدت ولكن لا مانع لدي في أن أذهب كممرضة ، أو طاهية . أو مربية أطفال . المهم أن أذهب الى بغداد

فهزت مس سبنسر رأسها وقالت :

– لا أعتقد ان ثمة أمل .. بالامس طلبت إلي احدى السيدات فتاة ترافق ابنتها الى استراليا .

– كلا .. أريد بغداد .. بحسبي أن أصل اليها .

ورأت في عيني مس سبنسر نظرة تساؤل فاستطردت قائلة :

– ان لي هناك أصدقاء ، يستطيعون ان يهيئوا لي عملاً بأجر كبير ..

وعندما غادرت المكتب . ابتاعت إحدى الجرائد وتصفحتها وخيل اليها ان كل كلمة فيها تتحدث عن بغداد فالاستاذ بونسفوت جونز ، عالم الآثار المشهور ، يقوم ببعض الحفريات في منطقة (موريك) الأثر على بعد عشرين ميلاً من بغداد .. وثمة لوحة اعلانية تقول انه يمكن الوصول الى بغداد عن طريق البحر الى البصرة ، ثم بالقطار الى بغداد والموصل الخ .. واعلان سينمائي عن فيلم (لص بغداد) ونقد ادبي لكتاب ظهر حديثاً بعنوان (هارون الرشيد خليفة بغداد) .

وخيل لفكتوريا ان الدنيا كلها تتحدث عن بغداد . التي لم تثر اهتمامها هي إلا منذ الساعة الثانية بعد ظهر ذلك اليوم .

وأحست بأنها لن تستطيع الوصول الى بغداد بسهولة ولكنها مع ذلك لم تفقد الأمل .

وفي المساء ، قبل أن تذهب الى فراشها ، سجلت الأبواب التي يجب أن تطرقها للحصول على عمل في بغداد على النحو التالي :

نشر اعلان في الصحف عن طلب وظيفة في بغداد .
وزارة الخارجية .
سفارة العراق .
الشركات التي تستورد التمر العراقي .
شركات الملاحة .
وكانت تتوقع الفشل ، فسجلت التساؤل التالي :
(كيف يمكن الحصول على مائة جنيه ؟) .

* * *

استيقظت فكتوريا جونز في ساعة مبكرة من صباح اليوم التالي وأرتدت ثيابها على عجل، وعندما همت بتصفيف شعرها . دق جرس التلفون ، فتناولت السماعة .

كان المتحدث هو مس سبنسر . وكان صوتها يدل على الانفعال .

هتفت قائلة :

– يا إلهي !! كم أنا سعيدة بأنني وجدتك .. لقد حدثت مصادفة عجيبة حقاً .

– مصادفة ؟

– نعم .. فان سيدة تدعى مسز هاملتون كليب تعتزم السفر الى بغداد بعد ثلاثة أيام وقد أصيبت بكسر في ذراعها وهي بحاجة الى فتاة ترافقها في رحلتها . ولكني لا أعلم ما اذا كانت قد اتصلت بمكاتب تخديم أخرى .

– سأذهب اليها على الفور . أين تقيم ؟

– في فندق سافوي .

– تقولين ان اسمها مسز تريب ؟

– كلا . مسز هاملتون كليب .. ان زوجها هو الذي اتصل بي .

– انت جوهرة .. سأذهب اليها في الحال ..

وارتدت خير ما عندها من ثياب ، وأعادت تصفيف شعرها لكي تبـدو جادة رصينة .. وقبل أن تنصرف اعادت قراءة الشهادة التي كتبها لها مستر جرينهولز وهزت كتفيها ..

واستقلت فكتوريا جونز الاوتوبيس الى (جرين بارك) وحانت منها التفاتة الى جريدة في يد راكبة تجلس بجوارها ، ولمحت نبأ مفاده ان الليدي كاينثيـا براد بوري ابحرت في اليوم السابق الى غرب افريقيا .. فسجلت النبأ في ذهنها وغادرت الاتوبيس وقصدت الى فندق ريتز ، وهناك ، في صالة الفنـدق وعلى ورقة تحمل اسمه كتبت شهادة أشادت فيها باخلاق فكتوريا جونز وعملهـا ، وقعتها باسم الليدي كاينثيا ..

وبعد بضع دقائق ، انطلقت الى فندق (بالدرتون) . وهو مـكان يختلف اليه كبار رجال الكنيسة والارامل المسنات القادمات من الاقاليم ، وهنـاك وعلى ورقة تحمل اسم الفندق ، وبخط رصين يختلف تمامـاً عن خط الليدي كاينثيا ، كتب شهادة أخرى اطرت فيها سلوك فكتوريا جونز ونسبتهـا الى أسقف (لانجو) ..

وتسلحت فكتوريا بهاتين الشهادتين ، واستقلت اتوبيساً آخر أوصلها على مقربة من فندق سافوي ..

ودخلت الفندق بقدم ثابتة .. وطلبت الى موظف الاستقبال ان يوصلهـا تليفونياً بمسز هاملتون كليب ..

وهم الموظف باجابتها الى ما طلبت ، ثم عاد ووضع السماعة وهو يقول :

– هو ذا مستر هاملتون كليب يغادر المصعد ..



كان هاملتون كليب رجلا طويل القامـة ، امريكي المظهر تنم قسمات وجهه عن الدعة وسعة الصدر فاقتربت منه وذكرت له اسمها ، وقالت انهـا

قادمة من لدن مكتب تخديم سان جتريك . فقال :

– حسناً يا آنسة جونز . . ان مسز كليب في غرفتها وسأرافقك الآن اليها .

ولكني اعتقد ان فتاة اخرى قد جاءت لمقابلتها لنفس الغرض . .

أصفر وجه فكتوريا . وأحست بالدنيا تدور من حولها . .

ترى هل ستفشل الآن بعد إذ اصبحت من هدفها قاب قوسين أو أدنى ؟؟

* * *

ورافقها هاملتون كليب الى الطابق الثالث .

وسار معها في دهليز طويل . . . وفجأة . . . أحست انها في حلم لا في يقظة . . . فقد وقع بصرها على فتاة مقبلة نحوهما خيل اليها للحظة قصيرة، انها تشبهها كل الشبه . . ربما لأن الفتاة كانت ترتدي (تاييراً) انيقاً الى اقصى حد، طالما تمنت هي أن يكون لديها مثيله .

ومرت بهما الفتاة . .

ويبدو أن مستر هاملتون كليب قد عرفها حالما مرت به ، لأنه ما لبث ان أدار وجهه في أثرها وغمغم قائلاً :

– هيلين شيل !! يا للشيطان !! من كان يظن انني ساقابلها هنا . .

ثم تحول الى فكتوريا وقال :

– معذرة يا آنسة . . فقد ادهشني أن أجد هنا في لندن هذه الفتاة التي قابلتها في نيويورك منذ أقل من اسبوع . . انها سكرتيرة أحد كبار الماليين الدوليين . .

وتوقف هاملتون كليب أمام باب وطرقه . . ثم فتحه ودخل قبل أن يلقى جواباً . . ووقف جانباً ليسمح لفكتوريا بالدخول . .

وكانت زوجته تجلس في مقعد كبير بالقرب من النافذة فنهضت لاستقبالهما كانت قصيرة القامة ، ضيقة العينين ، وقد عصبت ذراعها وشدته الى عنقها ..

وقدم مستر هاملتون الفتاة الى زوجته فقالت هذه الاخيرة :

ـ أليس من سوء الحظ أن يحدث لي ما حدث يا مس جونز ؟؟ كنت في طريقي الى العراق لزيارة ابنتي المتزوجة هناك والتي لم أرها منذ عامين ، ثم خطر لي أن أشهد معالم لندن قبل الرحيل الى بغداد وبينما كنت أشاهد دير وستمنستر ، زلت قدمي فكسرت ذراعي .. انني لا اتألم كثيراً ولكني أشعر بعجزي عن السفر ، خاصة وأن اعمال زوجي ستضطره الى البقاء في لندن ثلاثة أسابيع قبل أن يلحق بي . وقد خطر لي ان استخدم ممرضة ترافقني الى بغداد ثم تعود الى لندن تواً .. لأنني لن احتاج اليها فسوف اكون هناك في رعاية ابنتي وزوجها ..

ولكني عدت ففكرت في انني إذا لجأت الى مكاتب التخديم فقد أجد فتاة ترضى بمرافقتي لقاء أجر الرحلة .

فقالت فكتوريا في تواضع انها لا تستطيع أن تعد نفسها ممرضة بالمعنى المفهوم .. رغم انها قامت بتمريض الليدي كاينثيا برادبوري طوال عام بأسره وقدمت الشهادة التي تحمل توقيع الليدي واستطردت قائلة :

ـ أما اعمال السكرتارية فأنني أجيدها كل الاجادة وقد مارستها مع عمي أسقف (لانجو) .

قالت ذلك في تواضع ، وقدمت شهادة الاسقف فقالت مسز كليب وهي تدفع بالشهادتين الى زوجها :

ـ لا شك ان العناية الالهية قد ارسلتك اليّ يا بنيّتي العزيزة ..

فابتسمت فكتوريا في حياء واستطردت مسز كليب قائلة :

ـ هل تعرفين أحداً في بغداد يا مس جونز ؟ أو هل توجد في انتظارك

وظيفة هناك ؟

وبوغتت فكتوريا بهذا السؤال .. لم تكن قد فكرت في شيء آخر غير الشهادات .. فلم يخطر لها ببال ان تسأل عن سبب رغبتها في السفر الى بغداد .

وجاء جوابها ذكياً . وجريئاً ، وقائماً على نبأ قرأته في احدى الصحف في اليوم السابق ..

قالت :

- الواقع ، انني أريد اللحاق بعمي الدكتور بونسفوت جونز ..

- عالم الآثار ؟

- نعم ..

وادركت بعد فوات الوقت انها قد نسبت نفسها الى كثير من الاعمام المشهورين . ولكن لم يكن بوسعها أن تتراجع ..

قالت :

- انني شديدة الاهتمام بعمله .. ولم استطع الانضمام الى بعثته .. بسبب قلة الاعتمادات المالية فقال مستر هاملتون :

- مما لا شك فيه أن ارض الجزيرة غنية بالآثار التي تثير اهتمام العلماء وفضولهم .

فالتفتت فكتوريا الى الزوجة وقالت :

- اخشى أن يكون عمي الاسقف قد سافر الى اسكتلندا ولكن يمكنك الاتصال بسكرتيرته في رقم ٩٧٦٩٣ للحصول على كافة الاستعلامات بشأني .

- أظن انني ..

فقاطعها زوجها قائلاً :

- إن الوقت ضيق .. وستقلع الطائرة بعد غد .. هل لديك جواز سفر يا آنسة ؟

- نعم .. وقد احضرته معي ..

– هذا حسن .. هذا حسن .. انني أحب الاشخـاص العمليين .. سوف تحتاجين الى بعض التأشيرات . وأعتقد أن صديقي برجسون الموظف بشركة أميركان اكسبرس يستطيع انجاز هذه المهمة ولكن يجب أن تمكثي معنا هنـا .. فقد يحتاج برجسون الى توقيعك .

فوعدت فكتوريا بالعودة في الساعة الرابعة وانطلقت بسرعة الى شقتها وجلست امام آلة التليفون واستعدت لمحاكاة صوت سكرتيرة الأسقف فيما لو خطر لمسز كليب أن تستفسر عن الفتاة التي استخدمتها ..

ولكن مسز كليب لم تتصل .

وفي مساء ذلك اليوم ، كانت أوراق فكتوريا جونز قد استكملت تمـاماً .. وقضت الفتاة ليلتها الأخيرة في لندن في فندق سافوى . لكي تعاون مسز كليب في حزم أمتعتها للرحيل في الساعة السابعة من صباح اليوم التالي ..

الفصل الخامس

كان التيار قوياً ، فلم يجد عبدالله سليمان ، الشيخ الذي قضى الأعوام العشرة الأخيرة في نقل المسافرين بقاربه عبر (شط العرب) إلى البصرة ، لم يجد ما يصنعه سوى أن يترك القارب للتيار ، ويسبل أهدابه ، ويترنم باحدى الأغنيات بصوته الهادىء الحزين .

وكان القارب خالياً إلا من راكب واحد . ترتدي جلبـاباً طويلاً ، و (جاكتة) صفراء ممزقة ويضع حول عنقه شملة (كوفية) حمراء .. وقد أخذ هذا الراكب ينظر إلى الماء دون أن يراه . ويهمس بنفس الأغنيـة التي يترنم بها الشيخ ..

كان وجهه يشبه وجوه كثيرين ممن يعيشون بين دجـلة والفرات ، بحيث يستحيل على من ينظر اليه أن يتصور انه انجليزي لحماً ودماً ، وانه يطوي صدره على سر خطير قد يكلفه حياته ..

كان ينظر إلى الماء ولا يراه لأنه كان مستغرقاً في التفكير .

راح يستعرض المـاضي القريب ، ويفكر في الكمائن التي نصبت له في الجبل ، والأيام الأربعة التي قضاها هائماً على وجهه في الصحراء والليـالي التي قضاها في خيام كان ينظر إلى الماء ولا يراه ، لأنه كان مستغرقاً في أصدقائه

القدامى ، رجال قبيلة (العنايزة) .. والأعداء الذين يترصدونه ليحولوا بينه وبين إداء مهمته .

لقد خيل اليه ، ان كل إنسان صادفه في رحلته يعلم كل شيء عنه ، ويعرف انه هنري كارمايكل العميل البريطاني الذي يتكلم العربية والكردية والفارسية والأرمنية والهندية والتركية ويجيد لهجات سكان الجبال وله أصدقاء في جميع القبائل ..

* * *

كان رؤساؤه قد تركوا له حرية العمل ، فاختار من الطرق ما يكفل له أكبر قدر من الطمأنينة والسلامة .. وحرص على كتمان خطته للوصول إلى بغداد ، خاصة بعد أن تخلفت الطائرة التي كان مقرراً أن توافيه في مكان متفق عليه مما أقنعه بأن أدق الأسرار يمكن أن تتسرب بطريقة غامضة تثير الريبة في رؤسائه أنفسهم .

قال له البحار الشيخ :

– لقد اقتربنا يا بني .. كان الله معك ..

– عد على الفور يا أبتاه .. فلست أريد ان يصيبك مكروه ..

– لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا .. إن حياتي بين يدي الله .

وانحرف البحار الشيخ بقاربه .. وسار به متمهلاً حتى بلغ ضفـة النهر .. وهناك قال :

– لقد وصلنا وفقك الله وأطال بقاءك

* * *

ووثب كارمايكل إلى الضفة .. وسرعان ما وجد نفسه في جو مألوف ، وسط صبية يبيعون مختلف أنواع الفاكهة والحلوى ، ورجال يروحون ويغدون

في غير عجلة ..

وفي الجانب الآخر من الشارع .. حيث الحوانيت والبنوك ، كان عدد كبير من الأوروبيين ، أكثرهم من الانجليز ، يشقون طريقهم وسط عدد أكبر من الوطنيين .

وسار كارمايكل ببطء دون أن ينظر يمنة أو يسرة ، كمن لا يعنيه شيء مما يقع تحت بصره فعبر الجسر ، ومشى في السوق ، حيث الزحام والضوضاء .. وحيث يتدافع الناس ليشقوا لأنفسهم طريقاً .

وعلى الرغم من ثقته بأن أحداً في هذا الزحام لا يشعر بوجوده أو يقيم له وزناً . فقد أحس عن يقين بأن هناك خطراً يحوم حوله .

لم يعرف لهذا الأحساس مصدراً أو سبباً ، كان مطمئناً إلى انه ليس هناك من يتعقبه أو يراقبه . ومع ذلك فقد أحس بالخطر .. أحس به بغريزته التي قلما تخطىء ..

انحدر في طريق جانبي ضيق .. ثم انحرف يساراً ، ووجد نفسه في فناء واسع تحف به حوانيت تبيع مختلف البضائع .

ووقف أمام حانوت للفراء والأدوات الجلدية .. وكان صاحب الحانوت في تلك اللحظة يقدم القهوة لأحد زبائنه وهو شيخ مهيب الطلعة له لحية بيضاء ، وعلى رأسه طربوش تحيط به عمامة خضراء ..

وأشار كارمايكل إلى أحد الفراء وسأل التاجر

- بكم هذا ؟

- بسبعة دنانير ..

- هذا ثمن باهظ .

وقال الشيخ ذو اللحية البيضاء محدثاً التاجر :

- هل ستبعث اليّ بالسجاجيد اليوم ؟

- بغير شك .. هل سترحل غداً ؟

– نعم . سأذهب إلى كربلاء .

فقال كارمايكل :

– كربلاء ؟ انها مسقط رأسي ، ولكني لم أرها ولم أزر قبر الحسين منذ خمسة عشر عاماً .

فقال التاجر :

– إذا كنت تريد فراء رخيص الثمن فعندي ضالتك .

– أريد فراء أبيض ..

– ان مخزني ملىء بالفراء الأبيض .

وأشار إلى باب في آخر الحانوت يؤدي إلى المخزن .

كان هذا الحديث عادياً ومألوفاً في السوق كل يوم ، ولكنه تضمن كلمتي السر المتفق عليهما (كربلاء) و (الفراء الأبيض) ..

ورافق التاجر عميله إلى المخزن .. وهناك نظر كارميكل إلى وجه التاجر لأول مرة .. واكتشف انه ليس الوجه الذي كان يتوقع أن يراه ..

كان يشبهه إلى درجة مذهلة .. ولكنه ليس هو .

سأل في دهشة :

– إذن أين صلاح حسن ؟

– لقد توفي أخي المسكين منذ ثلاثة شهور .. وأنا الذي حلت محله ..

كان الشبه بين الأخوين واضحاً ، وإذا كان أحدهما قد عمل في خدمة المخابرات البريطانية فليس ثمة ما يمنع الآخر أن يحذو حذوه .. على أن الاحتمال لم يمنع كارمايكل من الأخذ بأسباب الحذر ..

وكان المخزن ضيقاً ، والاضاءة به ضعيفة ، والبضائع مبعثرة فيه بغير نظام .

ورأى كارمايكل في وسط المخزن مائدة صغيرة عليها فراء أبيض ، فرفع الفراء ووجد تحته بغيته ثوباً أوروبياً جيد الصنع ، في أحد جيوبه نقود وأوراق .. فتنفس الصعداء ..

لقد دخل المتجر كعربي مجهول ، ولكنه سيغادره بعد دقـــائق بصفته الجديدة كمستر ولتر ويليمز ممثـــل شركة كروس وشركاه ، وكلاء شركات الملاحة وأصحاب مكتب للاستيراد والتصدير .

ومستر ولتر ويليمز موجود فعلاً ، وهو من رجال الأعمال المعروفـين في المدينة ..

ومرة أخرى ، تنهد كارمـايكل بارتيـاح وراح يفحص الثوب الذي أعد له ..

ولو قد فكر أعداؤه في استخدام المسدس للتخلص منه ، لأصبح في عداد الأموات في تلك اللحظة بالذات.. ولكن من حسن حظه أنهم آثروا استخدام الخنجر . ربما لأنه لا يحدث صوتاً كالمسدس ..

كان خنجراً ذا نصل طويل مقوس . في يد شخص توارى خلف الثياب المكدسة في المخزن .

ولم ير كارمايكل الخنجر أو الشخص .. ولكنـــه رأى بريق النصل منعكساً على آنية نحاسية لامعة موضوعة في أحد الأركان ، ولو قـد تريث لحظة لغاص النصل بين كتفيه ولكنه استدار بسرعة البرق وأمسك بيد الرجل والقاه أرضاً فأنفلت الخنجر من قبضة يده وطار بعيداً .

ولم يحفل كارمايكل بخصمه ، وإنما أطلق ساقيه للريح وغـــادر المتجر مسرعاً ، ولم يتئد في مشيته إلا عندما وجد نفسه بين المارة في السوق .

توقف مرة أو مرتين ليفحص قطعة من القماش ، أو بعض أدوات القهوة .. ولكن ذهنه كان يعمل بسرعة ..

لقد وجد نفسه مرة أخرى، وحيداً وسط أعداء لا حصر لهم، يستطيعون أن ينالوه حتى في اللحظة التي يتوهم فيها أنه أصبح في مأمن من الأخطار ..

ترى هل استطاع العملاء الأجانب التسلل إلى صفوف المخابرات البريطانية لكي تنكشف كل حركاته وسكناته على هذا النحو المذهل؟ ولكن ذلك لا يهم

الآن .. المهم هو أنه الآن وحيد، صفر اليدين، وليست لديه أية وسيلة للتنكر وإخفاء شخصيته .. ولم ينظر وراءه ..

إذ ما الفائدة ؟ ان الذين يتعقبونه ليسوا سذجاً ..

وسار على غير هدى .. إلى أن وجد نفسه أخيراً خارج منطقة السوق ، فعبر الجسر ، وسار في الشارع المؤدي إلى القنصلية البريطانية ..

وكان من اليسير عليه أن يتسلل إلى مبنى القنصلية ولكنه تردد ..

إن الفيران لا تجد صعوبة في دخول المصيدة ولكنها لا تعرف المصير الذي ينتظرها بعد الدخول ..

كانت مخاطرة لا مفر منها .. فليس أمامه سبيل آخر

الفصل السادس

قبع ريتشارد بيكر في قاعة الانتظار بالقنصلية ريثما يفرغ القنصل لمقابلته..

كانت الباخرة التي استقلها الى البصرة قد وصلت في الموعد المقرر خلافاً لما توقع . وكانت النتيجة انه وجد امامه فترة فراغ تربى على ثمان وأربعين ساعة قبل أن يتمكن من مواصلة رحلته عن طريق بغداد الى (التل الأسود) .. مقر الحفريات التي يعمل فيها مع الدكتور يونسفرت جونز ..

ولكنه كان يعرف كيف يستطيع قضاء هذه الثماني والأربعين ساعة ..

كانت توجد في الجانب الآخر ، بالقرب من الكويت ، منطقة يقال أنها كانت مركزاً للحضارة القديمة .. فقرر أن يقوم برحلة سريعة اليها ، للبحث والدراسة ..

واستفسر في المطار عن أسرع السبل للوصول الى الكويت فقيل له أن طائرة ستقلع الى الكويت في الساعة العاشرة صباحاً ، وانه يستطيع العودة بها في اليوم التـــالي .. ولكن لا بد لذلك من الحصول على تأشيرة دخول من القنصلية البريطانية .

وتذكر بيكر انه سبق أن اجتمع في ايران بمستر كلايتون الذي يشغل الآن منصب القنصل العام في البصرة فقرر أن يقابله .. وأرسل اليه بطاقته ، وجاءه

الخادم لينبئه بأن مستر كلايتون مشغول .. ولكنه سيستقبله بعـــد بضع دقائق . وقاده الى قاعة للانتظار تطل على حديقة مترامية الاطراف .

وكان بالقاعة عدة اشخاص ينتظرون مقابلة القنصل العام ، فألقى عليهم بيكر نظرة سريعة .. ثم راح يتأملهم واحداً بعد الآخر .

كان بينهم رجل عربي يرتدي جلباباً وجاكته صفراء وشملة حمراء وعقالاً .. وفي يده مسبحة يحرك حباتها بأصابعه .

ورجل انجليزي بدين ، أبيض شعر الرأس والشاربين يسجل أرقاماً على ورقة في يده .. ويبدو أنه يعمل مندوباً تجارياً .

ورجل اسمر البشرة . تبدو عليه دلائل التعب .. ولعله كان سعيداً إذ وجد أخيراً مقعداً وثيراً يجلس عليه .

ثم رجل ايراني ، يرتدي ثوباً ناصع البياض ..

وقد ظل العربي طوال الوقت يحرك حبات المسبحة حبة بعد أخرى .

وفجأة . أحس بيكر بأن صوت ارتطام كل حبـة بالتي سبقتها يذكره بشيء .

شرطة . نقطة .. شرطة .. نقطة .

انها شفرة (مورس) التي تستخدم في ارسال البرقيـات .. وقد تعلمها واستخدمها حين كان يعمل في الجيش أبان الحرب ..

وأرهف اذنيه .. وراح يترجم الصوت إلى حروف . ويؤلف من الحروف كلمات . فحصل على كلمتي : « البومة – أيتون » .

البومة .. انه الاسم الذي كان يطلق عليه في كلية ايتون .. لانه كان يضع على عينيه نظارة ضخمة ذات إطار كبير .

ونظر جيداً الى العربي .. ووجد انه لا يختلف عن عشرات العرب الذين يقابلهم الانسان في السوق . وكانت عيناه تنظران بعيداً . وليس في نظراته ما يوحي بأنه يعرفه ..

واستمرت حبات المسبحة في نقراتها المنتظمة .. وترجم بيكر النقرات كما يلي :

« أنا الفقير .. أنني أعتمد عليك » .

وحار بيكر في الأمر.. الفقير ؟ أي فقير ؟ آه طبعاً .. الفقير كارمايكل . لقد أطلق عليه زملاؤه في الكلية هذا الاسم .. لأنه ولد وعاش في منطقة نائية لعلها تركستان أو افغانستان.. أو الهند . حيث توجد طائفة الفقراء.

وأخرج بيكر غليونه من جيبه ، ونظر فيه ، ثم راح يدق عليه باصبعه كأنما ليزيل منه بقايا التبغ ..

وكان معنى هذه الدقات :

« تسلمت رسالتك » .

وكانت الأحداث التي وقعت بعد ذلك سريعة مذهلة .. إلى حد أن ريتشارد بيكر لم يستطع فيما بعد أن يذكر تفصيلاتها تماماً .. فقد نهض العربي من مكانه.. ومشى نحو الباب .. ولما أصبح أمام بيكر ، زلت قدمه ، فاستند على هذا الأخير ليمنع نفسه من السقوط . ونطق بكلمة اعتذار وواصل سيره..

وفي ذات اللحظة ، ترك الانجليزي البدين أوراقه ، ودس يده في أحد جيوبه الداخلية بحركة سريعة لا تتفق مع بدانته ، وأخرج مسدساً ..

وبأسرع من لمح البصر ، انقض عليه بيكر ، وأهوى على يده بقبضته ، فسقط المسدس على الأرض وانطلقت منه رصاصة سكنت الجدار ..

أما العربي .. فأنه اختفى تماماً . انطلق يعدو في الدهليز الموصل الى مكتب القنصل ، ثم انحرف يساراً فوجد نفسه في الحديقة .. ووثب فوق السور ، وتوارى وسط الزحام ..

وأقبل خادم القنصل مهرولاً . فوجد بيكر ممسكاً بساعد الانجليزي البدين ، بينما لم يحرك أحد من الآخرين ساكناً ..

وصاح بيكر بالرجل الانكليزي

- ما معنى هذا ؟ لماذا أطلقت الرصاص ؟

فأجاب الرجل محتجاً :

- أنا لم أطلق الرصاص . لقد سقط المسدس فانطلقت الرصاصة . .

- انك أردت اطلاق الرصاص على ذلك العربي الذي فر في التو واللحظة .

- إنما أردت إرهابه .. لقد عرفته حين نهض واقفاً .. عرفت فيه شخصاً باعني قطعة أثرية زائفة .. كنت اقصد مداعبته وارهابه فحسب ..

وكان بيكر يكره الدعاية، فتظاهر بالاقتناع بأعذار الرجل رغم تفاهتها، أولاً لأنه لا يملك دليلاً ضده .. وثانياً لأن كارمايكل ربما لا يوافق على اثارة ضجة حول الحادث ..

وراح الخادم ينحى باللائمة على الرجل الذي اطلق الرصاص في القنصلية ، وقال ان القنصل لن يغفر مثل هذا السلوك ، فأجاب الانجليزي :

- قلت ان الرصاصة انطلقت قضاء وقدراً ، وأنا آسف لذلك .. وعلى كل حال فأنني سأنصرف الآن وسوف أحاول مقابلة القنصل في فرصة أخرى ..

ثم قدم بطاقته لريتشارد بيكر واستطرد قائلاً :

- اليك اسمي . وأنا اقيم بفندق المطار .. ويمكن الاتصال بي هناك إذا تطورت الامور .. ولكني اؤكد لك مرة اخرى ان الامر كان مجرد دعابة .

وانصرف الرجل .. وبعد لحظة ، دعى بيكر لمقابلة القنصل ، وكان رجلاً نحيفاً في الحفلة الخامسة من عمره فابتدره بيكر بقوله :

- لا اعلم إذا كنت تذكرني ام لا .. اننا تقابلنا في طهران منذ عامين ..

- بل اذكرك جيداً .. كنت وقتئذ مع الدكتور بونسفوت جونز .. اليس كذلك ؟ هل جئت معه ايضاً هذه المرة ؟

- نعم .. ولكني أجد لدى فسحة من الوقت قبل ان الحق بــه ، وأود قضاء هذا الوقت في القيام بزيارة سريعة للكويت . فهل هناك مانع ؟

- لا مانع على الاطلاق .. ستقلع الطائرة غداً صباحاً فتصل الى الكويت

بعد ساعة ونصف .. سأبرق الآن الى (ارشي جونت) مندوبنا المقيم هناك ، لكي يستقبلك ويعد لك مكاناً للاقامة .. أما هذه الليلة فانك ستقضيهـا في ضيافتي ..

– لا أريد ازعاجك .. ان في استطاعتي أن اقضي الليلة في الفندق ..

– ان فندق المطـــار مليء بالنزلاء . وسيكون من بواعث سرورنا أنا وزوجتي ان نستضيفك الليلة . ان لدينـــا ضيفين آخرين .. مستر كروسبي الموظف بشركة البترول .. وشاب آخر يعمل مع الدكتور راتبون ويقضي نهاره مع رجال الجمارك للتخليص على أمتعة الدكتور وكتبه ..

وكان كلايتون يقيم بالطابق الاول فوق مكاتب القنصلية وقد عرفت زوجته ريتشارد بيكر حالما رأته ، فرحبت به قائلة :

– لقد طفنا معاً بأسواق طهران ، وأذكر انك ابتعت مجموعة من السجاجيد الثمينة ..

فأجاب بيكر :

– أنها خير صفقة عقدتها .. والفضل فيها لك ..

فقال كلايتون :

– ان بيكر يعتزم السفر غداً الى الكويت ، وقد دعوته لقضاء الليلة معنا

فقالت زوجته :

– بغير شك .. انني لا استطيع أن اقدم لك افخم غرفة عندنا .. لأن الكابتن كروسبي يشغلها ولكني سأقدم لك غرفة اخرى مريحة .

واستأذن القنصل في الانصراف للعودة الى مكتبه .. وقال :

– يبدو أن حادثاً وقع في قاعة الانتظار ، فقد قيـل لي أن شخصاً شهر مسدسه ..

فقاطعه بيكر قائلاً :

الواقع انني شهدت هذا الحادث .. أن بطـله رجل انجليزي أراد مداعبـة

أحد العرب ولكني جردته من سلاحه .. اليك بطاقته .

وقدم للقنصل بطاقة الانجليزي البدين فقرأ فيها :

– روبرت هول مصانع أشيل – أنفلد .. انني لا أعرف لماذا أراد مقابلتي .. هل كان ثملاً ؟

– لا أعلم .. لقد زعم انه أراد مداعبة العربي ، وان الرصاصة انطلقت قضاء وقدراً ..

فقطب كلايتون حاجبيه وقال

– أن رجال الاعمال لا يزورون القنصلية عادة وفي جيوبهم مسدسات محشوة ..

فقال بيكر :

– أظن انه ما كان ينبغي لي أن ادعه يذهب ..

– ليس من السهل في مثل هذه الظروف أن يعرف الانسان ما ينبغي عليه عمله .. هل أصيب العربي ؟

– كلا .

– إذن فقد أحسنت باخلاء سبيل الرجل

– ولكني أعتقد ان وراء الاكمة ما وراءها .

– وأنا أيضاً اعتقد ذلك .

وعاد القنصل الى مكتبه .. بينما رافقت زوجته بيكر الى قاعة الاستقبال وقدمت له قدحاً من الجعة وسألته عن سبب سفره الى الكويت فأجابها ،وسألته لماذا لم يتزوج بعد . فقال أنه يكرس كل وقته للعمل ، ولا يفكر في أي شيء آخر ، فسألته :

– ألا توجد فتيات يعملن معكم في الحفريات ؟

– بل توجد فتاة أو فتاتان .. عدا زوجة الدكتور بونسفوت جونز بطبيعة الحال .

وفي هذه اللحظة دخل عليهما رجل قصير القامة عريض الكتفين فقدمته مسز كلايتون الى ريتشارد بيكر باسم الكابتن كروسبي . وقالت لكروسبي عن ريتشارد بيكر انه عالم آثار ينتظره مستقبل عظيم ، وانه اكتشف مجموعة قيمة من الآثار يرجع تاريخها الى الاف السنين .

فقال الكابتن أنه لم يفهم قط كيف يستطيع العلماء تحديد عمر الآثار التي يكتشفونها .. وانه يعتقد انهم يكذبون على الناس .

فنظر اليه بيكر في اشفاق ولزم الصمت ، فقال كروسبي ضاحكاً انه انما أراد مداعبته . وانه يود أن يعرف كيف يحدد العلماء عمر الآثار .. وأجاب بيكر بأن ذلك يتطلب شرحاً طويلاً ، فأنهت مسز كلايتون الحديث بقولها :

- ليكن ذلك في وقت آخر أما الآن فدعني أرشدك الى غرفتك .

وعندما خلا بيكر الى نفسه .. أخذ يتفقد الغرفة ويده في جيبه ..فشعر فجأة بأن في قاع الجيب ورقة مطوية لم يتذكر انه وضعها فيه .

الا يحتمل أن يكون كارمايكل قد دسها في جيبه تظاهر بأن قدمه زلت فاستند عليه ؟

أخرج الورقة من جيبه وبسطها وتبين أنها قد طويت مراراً من قبل حتى كادت أن تبلى ، وانها كتبت منذ ثمانية عشر شهراً ، ذلك إذا صح التاريخ المسجل فيها ..

كانت تتضمن توصية من الماجور ويلبر فورس بشخص يدعى أحمد محمد ، قال فيها انه رجل نشيط أمين يجيد قيادة سيارات النقل واصلاحها .

وقطب ريتشارد بيكر حاجبيه . واستغرق في التفكير .. من المحقق أن كارمايكل كان يشعر بأن حياته مهددة فلجأ الى القنصلية في طلب النجاة ، ولكن الخطر تعقبه الى هناك والعدو الذي يخشاه كان له بالمرصاد في قاعة الاستقبال .

ومما لا شك فيه ان الرجل البدين الذي بدا في مظهر المندوبين التجاريين قد

تلقى أمراً صريحاً محدداً ، فلم يتردد وحاول الفتك بكارمايكل في دار القنصلية في وضع النهار وأمام شهود . مما يدعو الى الاعتقاد بأن الامر عاجل ، وعلى جانب عظيم من الاهمية ..

ويبدو ان كارمايكل قد تبين الخطر وأحس بمصدره فلم يكد يتعرف على زميله في الجامعة حتى استغاث به . وحرص على أن ينقل اليه تلك الوثيقة التي قد يكون لها من الاهمية أكثر مما يبدو من ظاهرها فاذا استطاع أعـداء كارمايكل الايقاع به ولم يجدوا معه الوثيقة فمن المؤكد انهم سيواصلون البحث لمعرفة الشخص الذي انتقلت اليه .

فماذا يفعل الان بالوثيقة ؟

هل يقدمها لمستر كلايتون بصفته ممثل حكومة صاحبـة الجلالة ملكة انجلترا ؟

أم يحتفظ بها حتى يعود كارمايكل لاستردادها ؟

وصحت عزيمته على الرأي الثاني ، وهو الاحتفاظ بالوثيقة مع اتخاذ الحيطة اللازمة .

ولذلك عمل الى كتابة وثيقة مماثلة ، بخط متشابه بقدر الاستطاعة ولكن بمضمون مختلف تماماً .

وبعد أن فرغ من ذلك ، أجرى يده على نعل حذائه .. ثم مر بها على الورقة وطواها مراراً ليكسبها مظهر القدم .

ثم تناول الوثيقة الاصلية وغلفها بقطعة من ورق السلوفان ، ثم أحاطهـا بطبقة من الصلصال وصورها في شكل قطعة اثرية وضعها في مكتبه ..

أما الوثيقة الزائفة ، فانه دسها في جيبه .

وفي صباح اليوم التالي عندما استيقظ مبكراً ليستقبل الطائرة للكويت ، وضع يده في جيبه . ولم يجد أثراً للوثيقة الزائفة .

الفصل السابع

كانت فكتوريا جونز تنظر الى الحياة من خلال منظار وردي وهي جالسة مع مسز كليب في قاعة الانتظار المطلة على المطار ..

لقد مر موظف بالمطار منذ لحظات وأهاب بالمسافرين الى (القاهرة وبغداد وطهران) أن يستعدوا ...

ثلاثة اسماء تحدثت الى مخيلته فكتوريا وذكرتها بكل ما قرأته وسمعته عن الشرق وسحره وغموضه .

وطبيعي أن ذكر هذه الاسماء الثلاثة لم يحدث أي أثر في نفس مسز كليب التي قضت جانباً كبيراً من عمرها في الطائرات والبواخر والقطارات ..

كانت فكتوريا تنعم بكل دقيقة من حياتها منذ غادرت فندق سافوي في الصباح ، وذلك رغم ثرثرة مسز كليب وما طبعت عليه من التفكير بصوت مسموع ..

وراحت مسز كليب تستعرض زملاءها في الرحلة .. قالت :

– هذان الطفلان جميلان حقاً .. ولكن مرافقة الاطفال في الطائرات أمر مزعج .. لا بد انهما انجليزيان .. أما هذا الرجل ذو الثياب الصارخة الألوان فهو فرنسي بغير شك . أما هذا الذي يجلس هناك ، فانه هولندي .. لقد

كان يقف أمامنا عند فحص جوازات السفر ، يخيل الي انه ليس بين المسافرين أحد من الامريكيين . ولكن ما هذا ؟

لقد مر على جلوسنا هنا أكثر من نصف ساعة .. فلم كل هذا الانتظار ؟

وجاءها الجواب على الفور ، فقد مر بهما رجل طويل القامة ، أشيب شعر الرأس والشاربين يحمل معطفه على ساعده ، ويضع على رأسه قبعة عريضة الحافة أشبه بقبعات أهل المكسيك ، ويحيط به عدد من موظفي شركة الطيران ، يحمل أحدهم حقيبتين ثمينتين. كان الرجل أشبه بالمغامرين الذين نراهم في الأفلام.

وسمعت مسز كليب الموظفين يتسابقون للرد على أسئلة الرجل :

- نعم يا سير روبرت .

- طبعاً يا سير روبرت .

- ستقلع الطائرة في الحال يا سير روبرت .

فهمست مسز كليب :

- سير روبرت ؟ ترى من يكون هذا السير روبرت ؟ لا بد أنه إحدى الشخصيات الهامة ، هل هو أحد وزرائكم يا آنسة فكتوريا ؟

- لا أظن ذلك يا مسز كليب ..

ومهما يكن من أمر سير روبرت .. فانه كان بغير شك إحدى الشخصيات الهامة . بدليل أن الطائرة كانت تنتظره ، فلم يكد يصل حتى دعي الركاب إلى الصعود ..

وأقلعت الطائرة ، وانصرفت مسز كليب إلى قراءة إحدى القصص ، وراحت فكتوريا تطل من النافذة وأرخى سير روبرت قبعته على وجهه واستغرق في النوم .

وعندما وصلت الطائرة إلى مطار (كاستل بنيتو) في طرابلس ، كانت الأمطار تهطل بشدة ، وأقبل عدد من موظفي الشركة لاستقبال السير روبرت ومرافقته إلى جناح فاخر في فندق المطار ، بينما قصد المسافرون إلى غرف

أخرى بالفندق لقضاء ليلتهم ..

وقبل العشاء ، تخلفت فكتوريا قليلا في غرفتها لاستبدال ثوبها وتصفيف شعرها ، وعندما لحقت بمسز كليب التي قضت وقتهـــا في الثرثرة مع بعض المسافرين ، قالت لها هذه الأخيرة :

— لقد اكتشفت حقيقة هذا السيد الذي يحيطه موظفو شركة الطيران بكل الرعاية والاحترام ، انه السير (روبرت كرفتون لي) الرحالة المشهور .. لا بد انك سمعت عنه .

فهزت فكتوريا رأسها علامة الايجاب ..

كانت قد سمعت عنه حقاً ، ورأت صورته في بعض الصحف ، وقرأت أنه يعرف الصين من الداخل كما لا يعرفها أي إنسان آخر ، وأنه أحد الأوروبيين القلائل الذين ارتادوا (التبت) وزاروا (الهاسا) .. وأنه يعرف كردستان وآسيا الصغرى كأهلها .. وقد وضع عدة كتب أعيد طبع بعضهـــا أكثر من مرة .

وقد كان رأي فكتوريا في الرجل أنه يبدو أقل أهمية من كتبه ، ولكنها لم تقل ذلك لمسز كليب .

الفصل الثامن

كانت مكاتب شركة جراموفون (فالهالا) تقع في الطابق الخامس باحدى العمارات الكبيرة بحي رجال المال والأعمال في لندن

وفي إحدى الغرف ، كان رجل يقرأ كتاباً في الاقتصاد السياسي حين دق جرس التليفون فتناول السماعة ، وقال بصوت هادىء :

— شركة جرامفون فالهالا ..

— أنا ساندرز ، لدي تقرير عن هـ. ش. لقد فقدنا اثرها ..

فساد صمت عميق .. ثم صاح رجل الشركة بصوت حاد :

— ماذا قلت ؟

— قلت اننا فقدنا أثر هيلين شيل .

— لا تذكر أسماء .. إنك ارتكبت خطأ جسيماً .. كيف حدث ذلك ؟

— ذهبنا إلى العيادة التي حدثتك عنها .. والتي أجريت فيها جراحة لأختها .

— ثم ؟

— لقد نجحت الجراحة ، وظننا أن هـ. ش. ستعود إلى فندق سافوى ، ولكنها لم تبرح العيادة التي وضعناها تحت رقابة مشددة ..

— ولكنها مع ذلك بارحتها ؟

ـ ذلك ما اكتشفناه فيما بعد، وقد ثبت لنا أنها غادرتها في إحدى سيارات الأسعاف غداة إجراء الجراحة .

ـ إذن فقد خدعتكم ؟

ـ يخيل إليّ ذلك .. ولكني أستطيع أن أقسم أنها لم تكن تعلم أن هناك من يتعقبها .. فقد عملنا بحذر شديد . وكنا ثلاثة أشخاص .. و ..

ـ احتفظ بهذه التفصيلات لنفسك . وإلى أين ذهبت سيارة الأسعاف بـ (هـ. ش.) ؟

ـ إلى مستشفى الجامعة

ـ وماذا قالوا في المستشفى ؟

ـ قالوا أن سيارة الأسعاف حملت اليهم امرأة مريضة ومعها ممرضة هي بلا شك هـ. ش.. وأن الممرضة اختفت عقب تسليم المريضة . ولا أحد يعلم أين ذهبت .

ـ وماذا قالت المريضة عنها ؟

ـ لا شيء .. لأنها كانت تحت تأثير المخدر .

ـ والخلاصة أن هـ. ش. يحتمل الآن أن تكون في أي مكان ؟

ـ نعم .. ولكنها إذا عادت إلى فندق سافوى فان ..

ـ كفى سخفاً . إنها لن تعود إلى فندق سافوى .

ـ هل نبحث عنها في الفنادق الأخرى ؟

ـ طبعاً .. ولكن البحث لن يسفر عن نتيجة .. لأنهـا تعلم أن ذلك هو أول شيء ستفعلونه .

ـ إذاً ما هي تعليماتكم ؟

ـ إبحثوا عنها في الموانىء في دوفر وفولكستون وغيرهما .. وابحثوا في شركات الطيران .. وخاصة تلك التي تمر طائراتهـا ببغداد . وافحصوا سجلات الأشخاص الذين حجزوا أماكن للسفر خلال الأسبوعين القادمين ..

ولا تنسوا أن من المحقق أنها سوف تسافر تحت اسم مستعار .

- إن حقائبها لا تزال بفندق سافوى .. ومن المحتمل أن تطلب ارسالها إليّ ..

– لا أمل في ذلك .. ربما كنت أنت مغفلاً أما هي فانها ليست كذلك . هل تعلم اختها شيئاً ؟

– إننا على اتصال بالممرضة التي ترعاها في العيادة الطبية .. وقد علمنا أن الأخت تعتقد أن هـ. ش قد سافرت إلى باريس في مهمة خاصة بمستر مورجنتال وأنها تقيم هناك في فندق ريتز .. كذلك تعتقد الأخت أن هـ. ش ستعود إلى أمريكا في اليوم الثالث والعشرين من هذا الشهر .

– معنى ذلك أن هـ. ش. لم تقل شيئاً ولم تصارحها بشيء . ولا غرابة في ذلك .. عليكم الآن أن تهتموا بشركات الطيران .. أن هـ. ش. تزمع السفر إلى بغداد .. وهي لكي تصل اليها في الوقت المناسب ، لا مفر لها من السفر باحدى الطائرات وفيما عدا ذلك يا ساندوز ..

– نعم ؟

– لا ترتكب غلطة أخرى .. سنمنحك فرصة ثانية .. ولكنها ستكون الأخيرة ..

الفصل التاسع

.! نظر ليونل شريفنهام الملحق الشاب بالسفارة البريطانية ، إلى الطائرة التي تحلق فوق المطار وارتسمت على وجهه دلائل القلق .. فقد رأى سحباً رملية تتجمع في الجو وتنذر بعاصفة لم يتوقعها أحد .

قال لصديقه الذي يقف بجواره :

– أراهن على ان هذه الطائرة لن تستطيع الهبوط ..

فقال صديقه هارولد :

– إذن ماذا سيفعل قائدها ؟

– أعتقد انه سيهبط في البصرة .. فالجو هناك أفضل .

– هل بالطائرة من يهمك أمره ؟

فتنهد شريفنهام وأجاب :

– إنني في مأزق لا أحد عليه ، فالسفير الجديد لم يصل بعد ، ومستر لانسرون ، الذي يقوم بعمل السفير ، موجود الآن في انجلترا ، ومستر رايس ، مستشار السفارة لشؤون الشرق مصاب بحمى معوية ودرجة حرارته أربعون ، ومستر بيست سافر إلى طهران ، وهكذا لم يبق من المسؤولين لاستقبال الطائرة سواي .. ان بالطائرة شخصاً لا أعرف عنه شيئاً سوى انه

رحالة يقضي وقته على ظهور الجمال في بلاد لم يسمع عنها أحد .. ولكن يبدو أنه شخصية هامة ، فقد صدرت اليّ الاوامر بأن انزل على إرادته والبي كل رغباته .. فإذا هبطت به الطائرة في البصرة فمن المحقق أنه سيكون ضيق الصدر محنقاً حين يصل إلى هنا .. ثم انني لا أعرف ماذا ينبغي عمله إذا هبطت به الطائرة في البصرة .. ربما كان أفضل الحلول أن ارسل اليه احدى طائرات سلاح الطيران لاحضاره .. ولكني أعلم ان هناك قطاراً يغادر البصرة مساء اليوم . وربما كان صاحبنا يفضل أن .

ولم يتم شريفنهام عبارته . وتنهد مرة اخرى ..

لقد أمضى في بغداد ثلاث شهور لازمه خلالها سوء الطالع. حتى بات يشعر بأن أية غلطة جديدة قد تؤدي بمستقبله .

وأحس شريفنهام كأن عبئاً ثقيلاً أزيح عن صدره حين رأى الطائرة تهبط بسلام وتشق طريقها في الممر وتتوقف في المكان المخصص لها .

راح يراقب المسافرين وهم يغادرون الطائرة . وسرعان ما عرف ضالته من قبعته الغريبة .. فتقدم لاستقباله وبادره بقوله :

— سير روبرت كرفنون لي فيما اعتقد ؟ أنا شريفنهام من السفارة ..

وكان رد السير روبرت يفتقر الى اللباقة ولكن الشاب تجاوز عنه ورافق الضيف الى السيارة التي كانت في الانتظار وركب معه .. وقال على سبيل جس النبض :

- لقد خيل اليّ في لحظة ما ان الطائرة لن تستطيع الهبوط وانها قد تضطر لمواصلة الرحلة الى البصرة .. أن العاصفة الرملية ..

فقاطعه السير روبرت بقوله

- لو أن هذا قد حدث لكان كارثة بالنسبة لي ... هل تعرف أيها الشاب

أن أي تغيير يطرأ على برنامجي قد يكون له من النتائج الخطيرة ما لا يستطيع أحد تصوره ؟

وأدرك شريفنهام مدى غرور الرجل وصلفه ولكنه أجاب باحترام :

- انني واثق من ذلك يا سيدي .

- هل تعرف متى سيصل السفير الى بغداد ؟

- ان موعد قدومه لم يحدد بعد .

سوف يؤسفني ألا اراه .. لقد قابلته لآخر مرة في الهند ..

وصمت قليلاً ثم سأل :

- ألا يزال رايس هنا ؟

- نعم يا سيدي .. انه مستشار الشؤون الشرقية .

- انه رجل له اهميته .. ويسعدني أن اقابله .

- مما يؤسف له يا سيدي انه في المستشفى تحت الملاحظة . إذ يبدو أنه أصيب بحمى معوية وحالته تثير قلق الاطباء .

فتحول اليه السير روبرت بحدة وسأله :

- ومتى أدخل المستشفى ؟

- امس الاول .

فقطب السير روبرت حاجبيه ، وتلاشى صلفه وتمتم قائلاً :

- من يدري ، فلعله أصيب بحمى (شيل) !!

ولم يكن شريفنهام قد سمع عن مرض بهذا الاسم فلزم الصمت

واقتربت السيارة من جسر الملك فيصل وانحرفت يساراً في الطريق الى مقر السفارة .. وفجأة ، انحنى السير روبرت الى الامام وقال للسائق :

- هل لك أن تتوقف لحظة ؟.. أمام هذا الحانوت .

فأطاع السائق وأوقف السيارة أمام حانوت صغير مليء بشتى أنواع

الاواني الخزفية

وغادر الحانوت في هذه اللحظة رجـــل اوروبي . سار في الطريق الى الجسر وخيل لشريفنهام انه عرف فيـــه الكابتن كروسبي الموظف بشركة البترول وكان شريفنهام قد التقى به مرة أو مرتين .

ووثب السير روبرت من السيارة ، ودخل الحانوت ، وتناول آنيـــة ، ودار بينه وبين صاحب الحانوت حديث باللغة العربية ، وكانا يتكلمان بسرعة ، فلم يفهم شريفنهام – ومعرفته بهذه اللغة محدودة – شيئاً من حديثهما ..

وراح سير روبرت يفحص الاواني ، ويلقي بعض الاسئلة وصاحب الحانوت يجيبه بسيل من الكلمات .

وأخيراً وقع اختيار السير روبرت على آنية صغيرة ذات عنق طويل ضيق ، ووضع قطعة من النقود في يد صاحب الحانوت . وعاد الى السيارة ..

وقال يحدث شريفنهام :

- ان هذه الأواني الخزفية تصنع بنفس الطريقة منذ آلاف السنين .. وقد رأيت مثيلاتها في بعض المناطق الجبلية في أرمنيا .

ووضع اصبعه في عنق الانية وهو يتكلم . فقال شريفنهام :

– انها بدائية الصنع ..

– انني أوافقك على انها لا قيمة لها من الناحية الفنية . انني احتفظ بمجموعة ضخمة من الاواني الخزفية .

* * *

ووصلت السيارة الى السفارة فطلب السير روبرت اقتياده الى غرفته فوراً ، ولاحظ شريفنهام أن اهتمام ضيفه بالآنية قد فتر بمجرد فراغه من الحديث عنها .. حتى انه نسيها في السيارة . ورأى شريفنهام من واجبه ان يحملها . وشكره السير روبرت بلهجة الشخص الذي يفكر في شيء آخر .

وما ان انصرف شريفنهام حتى اقترب السير روبرت من نافذة غرفته . وبسط الورقة التي اخرجها بأصبعه من عنق الآنية .

كانت رسالة تتألف من سطرين . فقرأها ثم أحرقها ودق الجرس . وقال للخادم الذي أقبل :

– هل لك أن تطلب الى مستر شريفنهام أن يأتي لمقابلتي ؟

وجاء شريفنهام . لقد طرأ على برنامجي تعديل هام فهل استطيع الاعتماد على كتمانك ؟

– بغير شك يا سيدي .

– حسناً .. انني لم أقم بزيارة بغداد بضعة أعوام .. وبالتحديد ، منذ نهاية الحرب فهل لا تزال الفنادق على الضفة الأخرى للنهر ؟

– نعم يا سيدي .. بشارع الرشيد .

– على امتداد (دجلة) ؟

– نعم .. وأكبر هذه الفنادق هو فندق بابل ، الذي تنزل به الشخصيات الرسمية ..

– هل تعرف فندقاً يسمى فندق (تيو) ؟

– نعم ان زبائنه كثيرون . وطعامه جيد .. وصاحبه المدعو ماركوس تيو رجل عجيب يعد من معالم بغداد ..

– حسناً .. انني اريدك على أن تحجز لي غرفة في فندق (تيو) ؟

فبهت شريفنهام ، وظن انه لم يسمع جيداً ..

قال بلسان يتلعثم :

– هل تعني . انك لن تقيم في السفارة ؟ لقد اتخـــذنا جميـع الاجراءات لتوفير اسباب الراحة ..

فقاطعه السير روبرت :

– اعلم ذلك . ولكني يجب ان اقوم بمفاوضات سرية على جانب عظيم من الأهمية والخطورة .. وقد علمت للتو واللحظة انني لن استطيع انجاز هـــذه المفاوضات بدار السفارة . ولذلك أريدك على أن تحجز لي غرفة في (تيـــو) وسأغادر السفارة سراً ، اي انني لن اكون بحاجة الى سيارة السفارة لتــذهب بي الى (تيو) ثم انني أريد أن تحجزوا لي مـكاناً على للطائرة الـتي ستقلـع الى القاهرة بعد غد ..

– ولكني كنت اعلم انك ستقضي في بغداد خمسة أيام .

– قلت لك أن برنامجي قد تغير .. ولا بد لي أن أبرح بغداد الى القاهرة عقب الفراغ من مهمتي هنا .. أن بقائي في بغداد سيكون خطراً عليّ ..

– خطر عليك ؟

فارتسمت على شفتي السير روبرت ابتسامة رقيقة اذهلت شريفنهام .. لقد تغير الرجل فجأة فلم يعد ذلك الانسان المتعجرف الذي ذكره حين رآه في المطار بعجرفة الضباط الالمان .

واستطرد السير روبرت قائلاً :

– انني في العادة لا أحفل بسلامتي الشخصية ، ولكن الأمر في هذه المرة لا يتعلق بي وحدي . انه يمس أشخاصاً عديدين . ولذلك أرجوك أن تعمل على تنفيذ تعليماتي .. أما أنا فلن أغادر السفارة قبـل المساء ، وسأبقى في غرفتي لا أبرحها حتى ذلك الوقت .

ولشد ما كانت دهشة شريفنهام حين أردف السير روبرت قائلاً :

– أنا رسمياً مريض بالملاريا .. ولذلك لن أتناول طعاماً ..

– ولكننا نستطيع أن نقدم لك الطعام في غرفتك ..

– لا ضرورة لذلك .. إن الصوم أربعاً وعشرين ساعة لن يقتلني ، فأفعل كما قلت لك .

* * *

الفصل العاشر

كانت أولى انطباعات فيكتوريا لدى وصولها إلى بغداد هو الاحساس بخيبة الأمل ، فانها لم تر وهي في طريقها إلى فندق (تيو) سوى الرمـــال المحرقة والجو الخانق . والشوارع المكتظة .

وقد حرص ماركوس تيو ، صاحب الفنـدق على أن يستقبل مسز كليب بنفسه .

كان لا يزال في مقتبل العمر ، ولكنه ضخم الجسم ، مترهل الجسد .

هتف حالما وقع بصره عليها :

— طاب صباحك يا مسز كليب . كم نحن سعداء بلقائك .. ولكن ماذا أصاب ذراعك ؟ انك جئت في يوم عاصف ، وقد خشيت ألا تتمكن الطائرة من الهبوط .. لقد صح عزمي أكثر من ذي قبل على ألا أسافر بالطائرات .. لماذا العجلة ؟ أن بضع ساعات أو بضعة أيام لا تقدم ولا تؤخر .. آه .. أرى أنك أحضرت معك شابة جميلة !! نحن هنا في بغداد نرحب دائماً بالحسنلوات اللآتي لم يسبق لنا رؤيتهن .. هل تسمحان بأن أقدم لكما شيئاً ؟

وتحت الحاح ماركوس، وافقت فيكتوريا على أن تتناول قدحاً من الويسكي، ثم صعدت غرفتها ، ولاحظت حين نظرت إلى نفسها في المرآة أن شعرها قد

تغير لونه بفعل ذرات الرمل الناعم التي تخللته ..

ولكنها وجدت نفسها في المساء أفضل حالاً وأكثر نشاطاً بعد أن أغتسلت وأستبدلت ثيابها وتناولت غذاء شهياً وغفت في فراشها في فترة الظهيرة .

وكانت العاصفة الرملية قد هدأت ، فخرجت إلى شرفة غرفتها .. ورأت نهر دجلة يسبح في ضوء القمر ، وعلى ضفته الأخرى على امتـداد البصر كانت بعض بيوت مبعثرة بين أشجار نخيل لا حصر لها .

وتنبهت فيكتوريا فجأة إلى حديث يدور بين شخصين في حديقة الفندق تحت شرفتها مباشرة فأرهفت أذنيها .

ولكن مع من تتحدث هذه السيدة الثرثارة ؟

وأطلت برأسها من فوق حاجز الشرفة . ورأت مسز كليب تجالس سيدة انجليزية من ذلك الطراز الفضولي الذي يصادفه الانسان كثيراً في رحلاته بالخارج .

وكانت مسز كليب تقول :

— لا أعلم ماذا كنت سأفعل بدونها .. انها أظرف فتاة قابلتها في حياتي . ثم أنها تنتمي إلى اسرة كريمة ، فهي ابنة أخ أسقف (لانجو) .

- أسقف ماذا ؟

لانجو .. أظن أن هذا هو الاسم الذي ذكرته .

— لا يوجد أساقفة بهذا الاسم .

فقطبت فيكتوريا حاجبيها .. يبـدو أن هذه السيدة ليست ممن يمكن خداعهم بسهولة .

قالت مسز كليب :

— ربما سمعت الأسم خطأ .. مهما يكن من أمر فانها فتاة ظريفة مهذبة .

— أحقاً ؟

ويبدو أن السيدة لم تقتنع .. فقررت فيكتوريا أن تتجنبها بقـــدر

الاستطاعة وأستلقت في فراشها وراحت تستعرض موقفها ..

انها الآن في (تيو) .. وواضح انه من فنادق الدرجة الاولى .. بينما كل ما تملكه لا يتجاوز أربعة جنيهات وسبعة عشر شلناً .

لقد تناولت طعاماً شهياً ، ومن المحقق أن مسز كليب لن تدفع ثمن الطعام، لأن مسؤوليتها حيالها قد انتهت بوصولها الى بغداد ..

انها لم تعد الآن في خدمة مسز كليب التي ستسافر بقطار الليل الى كركوك .

ترى هل ستقدم لها مسز كليب منحة عند رحيلها ؟

ربما .. ولكن ذلك ليس مؤكداً ، خاصة وأن هذه السيدة الطيبة القلب لا تعرف شيئاً عن أزمتها المالية .

لم يبق هنا لها سوى شخص واحد تستطيع الاعتماد عليه .. وذلك الشخص هو ادوارد .. ولكن أين ستجده ؟ وكيف تستفسر عنه ؟

واكتشفت فيكتوريا فجأة أنها لا تعرف لقبه .. ولكن من حسن الحظ أنها تعلم انه يعمل سكرتيراً للدكتور راثبون . والدكتور راثبون شخصيته معروفة دون شك .

صففت فيكتوريا شعرها وأصلحت من زينتها .. وهبطت الى بهو الفندق .. فأستقبلها ماركوس بابتسامة عريضة

هتف حالما رآها مقبلة :

– مس جونز !! كم يسعدني أن أراك ، وسأكون سعيداً اذا وافقت على تناول شيء معي . انني أعبد الانجليزيات في بغـــداد صديقاتي هلمي بنا إلى البار ..

فلم تعارض فيكتوريا ، وما أن جلست الى البار ، وأمامها قدح من الويسكي حتى شرعت في الاستفسار عما يهمها معرفته .. سألته :

– هل تعرف شخصاً يدعى الدكتور راثبون ، وصل الى بغداد مؤخراً ؟

– أنني أعرف كل الناس في بغداد ، وكل الناس يعرفونني . والجميع اصدقائي ..

– أنا واثقة من ذلك .. ولكن هل تعرف الدكتور راتبون ؟

– في الأسبوع الماضي ، جاءني القائد الأعلى لسلاح الطيران في الشرق الأوسط ، ولم أكن رأيته منذ ثلاثة أعوام فقال لي انني أصبحت بديناً .. آه .. لكم أحب هذا الرجل ! انه ظريف حقاً ..

– والدكتور راتبون .. أهو ظريف أيضاً ؟

– انني أحب أن ارى حولي وجوهاً باسمة .. وأحب الشباب المرح الظريف الذين على شاكلتك ..

– هل لك في قدح آخر من الويسكي ؟

– كلا .. شكراً ..

– إن قدحاً آخر لا يقدم ولا يؤخر ..

– والدكتور راتبون ؟

– مسز كليب أمريكية .. أن بين الأمريكيين أشخاصاً ظرفاء إلى أقصى حد .. اليك مثلاً مستر سومرز أنه حين يأتي إلى بغداد يقضي اليوم الأول في الشراب ويلزم فراشه طوال الأيام الثلاثة التالية .. وفي رأيي أن ذلك إسرافا .

– أريد منك خدمة يا مستر تيو .

فأبرقت أسارير ماركوس وقال :

– ان هذا كل ما أتمنى.. قولي ماذا تريدين فأعمل على تنفيذه فوراً ..

– أريد مقابلة الدكتور راتبون .. انه جاء إلى بغداد منذ بضعة أيام ومعه .. ومعه سكرتير ..

– راتبون ؟ انني لا أعرفه .. فهو ليس من عملاء تيو ..

وكانت لهجة الرجل صريحة في الدلالة على انه لا يعترف بوجود شخص

ليس من عملاء فندقه فسألته فيكتوريا :

— هل توجد فنادق أخرى ؟

— طبعاً . يوجد فندق (بابل بالاس) وفندق (سنحريب) وفندق (زبيدة) . جميعها من فنادق الدرجة الأولى .. ولكنها لا تضارع (تيو) .

— هذا أمر مؤكد .. ولكن الا تعلم ما إذا كان الدكتور راتبون ينزل في أحد الفنادق ؟ انه يدير معهداً .. او جمعية ثقافية ..

— هذا شيء جميل .. فنحن جميعاً بحاجة إلى الثقافة وخاصة الثقافة الموسيقية .. وفيها يختص بي .. فأنني أعبد السيمفونيات . وخاصة القصيرة منها .

وادركت فيكتوريا أنها تضيع وقتها عبثاً .. صحيح أن الرجل لبق . ولكن أحاديثه مهما تشعبت ، تلتقي كلها عند نقطة واحدة .. هي ماركوس نفسه .

ورفضت الفتاة القدح الثالث الذي عرضه عليها ماركوس وغادرت صالة الفندق وهي تترنح .. وقصدت الى الشرفة واستندت عليها ، وراحت تتأمل النهر .

وما هي الا لحظة حتى سمعت خلفها صوتاً يقول :

— معذرة يا آنسة .. ولكن يجب أن ترتدي شيئا يقيك من البرد .. نحن لسنا في انجلترا .. والجو هنا حار وخانق نهاراً ، ولكن شديد البرودة حالما تغيب الشمس .

فاستدارت فكتوريا ووجدت نفسها وجهاً لوجه مع السيدة التي كانت تتحدث مع مسز كليب تحت شرفتها .

كانت جالسة على مقعد وثير ، وعلى ركبتيها غطاء ، وحول عنقها شملة من الفرو ..وامامها قدح مليء بالوسكي ..

قالت فكتوريا :

ـ شكراً لك ..

وهمت بدخول الفندق . ولكن يبدو ان السيدة كانت مصممة على التحدث اليها ..

قالت :

ـ يبدو انني لم أقدم اليك نفسي .. انا مسز كارديو تريئش ..

وكان واضحاً من صوتها ولهجتها ان لأسرة كاريو تريئش مكانة مرموقة .. واستطردت السيدة قائلة :

ـ اعتقد أنك جئت الى بغداد مع تلك السيدة الأمريكية : مسز هاملتون كليب ؟

ـ نعم ..

ـ انها قالت لي أنك أبنة أخ أسقف لانجو ؟

ـ هل قالت لك ذلك ؟

وابتسمت ابتسامة ذات مغزى فقالت السيدة :

ـ انها أخطأت بغير شك ..

ـ الواقع أن الامريكين كثيراً ما يخلطون بين الأسماء ان الاسم (لانجو) قريب الشبه من لانجاو أن عمي أسقف لانجاو ..

ـ لانجاو ؟

ـ نعم .. إنها جزيرة صغيرة في الباسفيك .

ـ آه ..

ولم تكن مسز كارديو تريئش قد سمعت عن جزيرة بهذا الاسم ، ولكنها قالت :

ـ إن ذلك يوضح الحقيقة .. ولكن ماذا تفعلين في بغداد ؟

وتحرجت فيكتوريا من أن تقول أنها إنما جاءت للبحث عن شاب دار بينها وبينه حديث في إحدى الحدائق العامة بلندن .. ولكن من حسن الحظ أنها كانت قوية الذاكرة .

وقالت :

– لقد جئت للحاق بعمي الدكتور بونسفوت جونز .

– أنه رجل ظريف ولكنه سريع النسيان .. لقد سمعت إحدى محاضراته في لندن في العام الماضي وأقول لك الحق أنني لم أفهم منها كلمة واحدة .. الواقع أنه مر ببغداد منذ أسبوعين وأعتقد أنه مر ببغداد منذ اسبوعين واعتقد انه قال شيئاً عن فتيات سوف يلحقون به ..

وأحست فيكتوريا بأن مركزها قد توطد فسألت :

– ألا تعلمين إذا كان الدكتور راتبون موجود في بغداد أم لا ؟

– أعتقد انني قرأت أخيراً انه سيلقي محاضرة بالمعهد يوم الخميس القادم موضوعها :

(الأخاء في العلاقات الدولية) .. وإذا أردت رأيي .. فانني أعتقد أنه يعيش في الخيال .. أن محاولة التقريب بين الشعوب لا تسفر عادة إلا عن تباعدها .. ولست أرى أية فائدة من إقدام الدكتور راتبون على ترجمة مؤلفات شكسبير أو ميلتون إلى العربية والصينية والهندستانية .

– هل تعلمين أين يقيم ؟

– اظن انه يقيم بفندق (بابل بالاس) .. ولكن مقر عمله في (غصن الزيتون) .. بالقرب من المتحف، على بعد بضع خطوات من سوق النحاس .. غصن الزيتون إسم مضحك لمعهد يبعث على الضحك .. معهد تتردد عليه فتيات بعوينات سميكة يرتدين غلالات رقيقة ، ولا يغسلن أعناقهن ..

انني أعرف سكرتيره ..

ـ آه .. ذلك الشاب الوسيم .. ماذا كان اسمه ؟ إدوارد .. نعم .. انه يدعى ادوارد .. شاب ظريف ظاهره بوضعه في بيئة المثقفين التي لا ينتمي اليها من قريب أو بعيد .. وقد قيل أنه أبلى بلاء مجيداً في الحرب .. ولكن يبدو أني بحاجة إلى هذه الوظيفة .. أن جميع الفتيات مدلهات به .. وبهذه المناسبة كيف حال مسز بونسفوت جونز ؟ قيل لي أنها كانت مريضة جداً ..

ووجدت فيكتوريا ، بعد أن عرفت ما كانت تريد معرفته أن من الحماقة أن تتورط في أكاذيب جديدة ، فألقت نظرة على ساعتها وصاحت :

ـ يا إلهي !! الساعة الآن السادسة والنصف ، ومسز كليب تنتظرني لكي أساعدها في ارتداء ثيابها .. يجب أن أذهب ..

وكانت مسز كليب تنتظرها حقاً .. فانطلقت إلى غرفتها وهي تكاد تطير فرحاً ..

أنها سترى أدوارد غداً .. أما أولئك الفتيات المدلهات به فانها لا تقيم لهن وزناً .. بحسبها أن تلتقي بادوارد فتستقيم الأمور ..

ومرت الساعات التالية بسرعة ..

تناولت طعام العشاء مع مسز كليب .. ثم رافقتها إلى المحطة .. حيث أجلستها في القطار المسافر إلى كركوك وأوصت بها بعض المسافرات ..

وعندما بدأ القطار يتحرك قالت مسز كليب وهي تضع في يد فيكتوريا مظروفاً ضخماً :

ـ هذه هدية صغيرة للذكرى فتقبليها يا مس جونز مع وافر شكري..

ـ كم أنت لطيفة يا مسز كليب ! ما كان يجب أن تفعلي ذلك ..

ثم استقلت إحدى سيارات الأجرة إلى الفندق ، وأسرعت إلى غرفتها وفضت المظروف بأصابع ترتجف ، ووجدت به جورباً من النايلون ..

وكان يمكن في ظروف أخرى أن ترحب بهذه الهدية .. فان دخلها لم يسمح لها قط بأن تبتاع جورباً من النايلون ولكنها كانت تأمل في شيء

آخر .. بعض النقود في ظروفها الحالية كانت أفضل الف مرة من الجورب.. مما يؤسف له أن رقة مسز كليب وكياستها منعتاها من أن تقدم لها ورقة مالية ذات خمسة دنانير أو اكثر ..

مهما يكن من أمر .. فان الأمور ستكون أفضل غداً حين تلتقي بادوارد ..

وبهذا الأمل ، أوت فيكتوريا إلى فراشها.. وبعد خمس دقائق كانت تغط في النوم .

* * *

الفصل الحادي عشر

كانت الشمس قد أشرقت منذ ساعة حين استيقظت فيكتوريا وارتدت ثيابها وأطلت من شرفتها ولشد ما كانت دهشتها حين رأت رجلاً أشيب الشعر يجلس في الحديقة وظهره نحوها ، فقد عرفت في الرجل سير روبرت كروفتون لي .

لم يخطر ببالها قط أن رجلاً ذا شخصية مبرزة يمكن أن يقيم في مكان آخر غير السفارة ..

كانت عيناه تنظران نحو الحقول البعيدة ، ولاحظت أن منظاراً مكبراً يتدلى من مسند مقعده واستنتجت من وجود المنظار أنه ربما كان يرقب الطيور وهي تحلق في السماء ، فقد عرفت في انجلترا شاباً كانت له مثل هذه الهواية ..

وغادرت فيكتوريا غرفتها وهبطت الى الشرفة التي تصل ما بين جناحي الفندق ، وقابلت هناك ماركوس تيو ..

سألته :

– هل يقيم السير روبرت كروفتون في هذا الفندق ؟ لقد خيل الي أنني ..

- نعم .. انه يقيم هنا .. انه رجل ظريف .

– هل تعرفه جيداً ؟

- طبعاً

فقالت فيكتوريا لنفسها

- يبدو أن جميع الناس في نظر ماركوس تيو ظرفاء ..

وتناولت افطارها ، وقررت أن تنطلق للبحث عن غصن الزيتون .. ان المتحف الذي تحدثت عنه مسز كارديوتريتش لا يمكن أن يكون بعيداً ..

واتفق انها قابلت ماركوس مرة أخرى وهي تهم بالانصراف ، فسألته عن المتحف وأجاب :

- المتحف ؟ انه عظيم . ملىء بالآثار القديمة الرائعة أنني لم أذهب اليه قط ولكن اصدقائي علماء الآثار يقضون كل يومهم هناك كلما قدموا الى بغداد ..

- ولكن أين موقعه ؟

- سيري في شارع الرشيد حتى تصلي الى جسر الملك فيصل فاعبريه .. ثم اجتازي شارع البنوك واعبري جسراً صغيراً هناك .

ان المتحف في شارع ضيق الى يسار الجسر . أطلبي هناك مستر بيتون ايفانز امين المتحف . انه رجل ظريف له زوجة رائعة جاءت معه ابان الحرب .

- الواقع انني لا اريد زيارة المتحف ذاته . ولكني أبحث عن مقر جمعية أو معهد يقال له (غصن الزيتون ، فهل تعرفه ؟

- كلا .. وعلى كل حال فان المتحف بعيد ويجب أن تستقلي احدى سيارات الأجرة ..

- وهل يستطيع السائق أن يذهب بي الى غصن الزيتون ؟

- كلا بغير شك .. أن السائقين هنا لا يعرفون شيئاً على الأطلاق .. واذا أراد الانسان الذهاب الى مكان ما فعليه أن يرشد السائق .

- لعل من الأفضل أن أذهب سيراً على قدمي .

وبدأت فيكتوريا رحلتها ، وما لبثت أن اكتشفت أن المدينة تختلف كل الاختلاف عما تخيلتها فحركة المرور كثيفة وابواق السيارات لا تكف عن

الضجيج ، والمتاجر مكدسة بالبضائع المستوردة وليس هناك سوى عدد قليل من النساء المحجبات ..

واجتازت جسر الملك فيصل ، وواصلت سيرها ، ووجدت نفسها دون ان تشعر او تستفسر أمام مبنى المتحف ..

ولكن أين معهد (غصن الزيتون) ..

ولما كانت تجهل اللغة العربية . فان الاسئلة التي ألقتها على التجار ظلت بغير جواب أما رجال شرطة المرور فكانوا منهمكين في عملهم ، فلم تتح لها فرصة للتفاهم معهم ، وأخيراً سارت كيفما اتفق .. وقادتها الصدفة وحدها الى شارع ضيق تنبعث منه ضجة شديدة .. ووجدت فجأة أنهـا في سوق النحاس التي حدثتها عنها مسز كارديو تريندش ..

وأثارت عملية طرق النحاس وتصنيعه وزخرفته فضولها .. فقضت هناك نحو ساعة نسيت خلالها كل شيء عن غصن الزيتون وأحست بأنهـا في بلاد الشرق حقاً ..

وعندما غادرت السوق ، وخرجت من الزقاق المقبو الذي يضم النحاسين . وجدت نفسها بغتة أمام مبنى على بابه لافتة تحمل اسم (غصن الزيتون) ..

واجتازت دهليزاً ينتهي بقاعة فسيحة وجدت بها بضعة مقاعد ، ومائدتين او ثلاث عليها كتب ومجلات .

ولما ألفت عيناها النور الخافت الذي يضيء الغرفة تبينت دواليب الكتب التي تغطي الجدران ورأت فتاة تقبل عليها وتسألها عما في استطاعتها أن تفعله من أجلها .

كانت الفتاة ترتدي بنطلوناً من القطيفة وقميصاً جميلاً برتقالي اللون ، وقد ادركت فكتوريا حين رأت قسمات وجهها وشعرها الناعم أنها لا بد أن تكون من أهل الشرق سألتها :

ـ هل هذا مقر الدكتور راتبون ؟

– نعم .. هنا معهد غصن الزيتون .. هل تريدين الانضمام اليه ؟

– ربما فيما بعد . أما الآن فانني أريد مقابلة الدكتور راتبون .

فابتسمت الفتاة ابتسامة غامضة وأجابت

– اننا لا نستطيع ازعاجه . ولكني على استعداد لأن أقدم اليك كافة الارشادات .. ها هي استمارة العضوية فاملئيها ووقعي عليها بامضائك .. أما رسم الاشتراك فهو ديناران .

فقالت لها فيكتوريا انها ستفكر في الموضوع . وأنها تريد أولاً ان تقابل الدكتور راتبون او سكرتيره ..

وأجابتها الفتاة :

– ولكن ذلك مستحيل الآن . قلت لك ان ..

– وما وجه الاستحالة ؟ هل السكرتير غير موجود ؟ وكذلك الدكتور راتبون ؟

– الدكتور موجود بالطابق الأول ولكنه أمرنا بألا نزعجه ..

– انني قادمة للتو من انجلترا .. ومعي رسالة للدكتور راتبون على جانب عظيم من الأهمية .. ولذلك يجب ان اقابله شخصياً . وفوراً .. يؤسفني ان اضايقك ولكن لا بد مما يؤسفني ان اضايقك ولكن لا بد مما ليس منه بد ..

ولاحظت الفتاة اصرارها فقالت .

– حسناً .. اتبعيني ..

وقادتها إلى الطابق الأول ، حيث وجدت الدكتور راتبون ..

كان رجلاً قصير القامة أشيب الشعر يناهز الستين من عمره ، وقد نهض لاستقبال الزائرة التي قيل له انها قادمة من انجلترا ..

بسط لها يديه مرحباً ، وقال على شفتيه ابتسامة رقيقة :

– هل انت قادمة من انجلترا ؟ لا شك أن هذه اول رحلة لك في بلاد الشرق ..

- إنها كذلك ..

- يهمني أن اعرف انطباعاتك عن هذه البلاد .. ولكن حدثيني أولاً .. ألم نتقابل قبل الآن ؟

- كلا .. ولكني صديقة لادوارد ..

- صديقة لادوارد ؟ وهل يعلم انك في بغداد ؟

- كلا ..

- إذن فستكون مفاجأة له عندما يحضر ..

- عندما يحضر ؟

- نعم .. انه الان في البصرة للتفاهم مع رجال الجمارك بشأن شحنة كتب وردت الينا من انجلترا ..

- ومتى سيعود الى بغداد ؟

- لا اعلم . من المحقق انه لن يعود قبل الفراغ من مهمته .. اذكري لي عنوانك وسوف انبئه حالما يحضر .

وتذكرت أزمتها المالية وحرج مركزها .. وقالت بعد تردد :

- هل يمكن أن اجد لي عملاً عندكم هنا ؟

دون شك .. اننا بحاجة الى جميع ذوي النيات الطيبة ، ونرحب بالانجليزيات بصفة خاصة .. يوجد نحو ثلاثين شاباً وفتاة يعملون معنا الان ولكني واثق من انك ستفيديننا كثيراً ..

- الواقع انني اطلب عملاً بأجر ..

فقال الدكتور راثبون وقد فترت حماسته فجأة :

- هذا أمر آخر .. ان العمل بأجر يبدو عسيراً في الوقت الحاضر لاخاصة وأن ميزانيتنا لا تكاد تغطي مرتبات موظفينا القلائل .

- من سوء الحظ ان مركزي لا يسمح لي العمل حباً في العمل ..

واحمر وجهها وهي تستطرد قائلة :

انني اجيد الاختزال والعمل على الالة الكاتبة ..

– أنا واثق من ذلك ايتها البنية العزيزة .. ولكن العقبة في الميزانية .. على انني أرجو إذا استطعت العثور على عمل آخر ان تكرسي بعض اوقات فراغك للتعاون معنا .. اننا نؤدي هنا عملاً جليلاً . يهدف الى القضاء على الحروب وإزالة اسباب البغض والجفاء التي تمزق العالم وذلك بالتقريب بين الشعوب عن طريق الفن والثقافة والشعر .!

واشتدت حماسة الدكتور راتبون ومضى يقول .

- لقد ترجمت مسرحية شكسبير (حلم ليلة صيف) الى اربعين لغة .. فأتيحت بذلك لشباب اربعين دولة فرصة الاستمتاع بهذه التحفة الادبية الرائعة .. ان جل اعتمادنا على الشباب . فهم أقدر على الفهم والتفاهم .. اليك مثلا الفتاة التي استقبلتك في المكتبة . انها سورية من دمشق وتدعى كاترين . وهي في مثل سنك تقريباً ، وقد لا تكون بينها وبينك أية صفة مشتركة ، ولكنكما مع ذلك قد تقابلتما هنا .. ان غصن الزيتون مباح للجميع .. وبين أعضائه شباب من روسيا والعراق وتركيا ومصر وأرمينيا وإيران .. جميعهم يقرأون نفس الكتب .. ويتبادلون وجهات النظر ويكتشفون حقائق الحياة .

* * *

وكان لفكتوريا رأي آخر في فتيات غصن الزيتون اللائي يتهالكن على ادوارد ، أما كاترين بالذات فانها لم تكن تتمنى ان تنشأ بينهما أية صداقة ..

ومضى الدكتور راتبون في حديثه .. قال :

– ان ادوارد شاب رائع . وله قدرة عجيبة على التفاهم مع الفتيات رغم أنهن جميعاً يعبدونه ..

وابتسم الدكتور واستطرد قائلا :

– انما اردت بهذا كله ان اقول لك اننا سنكون سعداء إذا عملت معنا .

قال ذلك وبسط لها يده فأدركت ان المقابلة انتهت وشدت على يـــده وانصرفت ومرت في طريقها بكاترين . وكانت هذه تتحدث مـــع نتاة اخرى خيل لفكتوريا انها رأتها قبلا في مكان ما . وكان حديثهما بلغة غريبة لم تفهم منها فكتوريا كلمة واحدة واكثر من ذلك انهما كفتا عن الكلام حين ابصرتا بها .

وسارت فكتوريا في طريقها الى للفنـــدق . وحاولت ان تتناسى دقـة مركزها كفتاة وحيدة وبلا نقود في بلد غريب ، بالتفكير في امر الدكتـور راثبون ومعهد غصن الزيتون .

لقد قال لها ادوارد في لندن انه في عمل يثير الريبة .. فهـل كان يعني بذلك الدكتور راثبون ام غصن الزيتون .

كان رأيها الشخصي في الدكتور راثبون انه عـالم مجنون يعيش في حلم مستحيل التحقيق ولكنه لا يمكن أن يكون محتالاً أو ...

صحيـح انها لاحظت ان موقفه مثلاً قد تغير حين قالت له انها تريد عمـلا بأجر .. ولكن ذلك دليل على انه رجل منطقي متزن التفكير .

أن هناك أشخاصاً يضايقهم ان يدفعوا اجراً الذين يعملون معهم . وقـد قابلت فكتوريا كثيرين من هذا الطراز .. ومنهم على سبيـل المثال مستر جرينهولز .

الفصل الثاني عشر

عادت فكتوريا الى الفندق متعبة مورمة القدمين ، ورآها ماركـوس من بعيد ، فدعاها الى الجلوس وتناول قدح من الشراب ، وقدمها الى رجل كان يجالسه ويدل مظهره على عدم عنايته بهندامه ..

– قال :

– دعيني أقدمك الى مستر داكين . هـــذه هي مس جونز التي جاءت أخيراً من انجلترا يا مستر داكين مـاذا تتناولين يا مس جونز ؟ مـارتيني ؟ ويسكي ؟

فطلبت قدحاً من المارتيني .. بينما قنع داكين بقدح من عصير الليمون

ولمح ماركوس مسز كارديوتزيدش ، فدعاها للانضمام اليهم ، وقال يحدثها:

لا شك انك تعرفين مستر داكين . هل تسمحين لي بأن اقدم لك قدحاً من الشراب ؟

فأجابت السيدة :

– لا بأس بقدح من الجين بالصودا ..

وحيث داكين باحناء رأسها وقالت تحدث فكتوريا .

- يخيل الي أنك متعبة .. هل ذهبت الى مكان ما ؟

- بل قمت بنزهة في السوق .. ان فيها أشياء كثيرة تستحق أن يراهـــا الأجانب ..

وجاءهم الخادم بأقداح الشراب ومـا هي الا لحظة حتى قدم زائر جديد . قدمه ماركوس الى فيكتوريا باسم الكابتن كروسبي .. وسألها هذا الأخير :

- هل قدمت منذ مدة طويلة ؟

- منذ امس .

- هذا ما ظننته ، فانني لم ارك هنا قبل اليوم .

فقال ماركوس وهو يبتسم :

- انها فاتنة اليس كذلك ؟ . انني افكر في اقامة مأدبة عشاء تكريمـــاً لها .

وقالت مسز ترينش تحدث كروسبي :

- كنت أظن انك في البصرة .

- انني عدت منها امس ..

ورفع بصره الى احدى شرفات الفندق وقال :

- من هذا السيد الأنيق الذي يجلس في الشرفة ويضع على رأسه قبعة عريضة كقبعات اهل المكسيك .

فأجاب ماركوس :

- انه السير روبرت كروفتون لي .. انه رجل ظريف ورحـالة مشهور . يقضي جل وقته في ارتياد الصحاري على ظهور الجمال ..

- لقد سمعت عنه وقرأت أحد كتبه .

وقالت فيكتوريا :

- انني وصلت معه في نفس الطائرة .

ثم استطردت قائلة بقلة اكتراث : ولكن يخيل الي ان شيئاً فيه قد تغير .

وشعرت بشيء كثير من الخيلاء لان داكين وكروسبي لم يحولا انظارهما عنها .

وبعد قليل ، استأذنت فيكتوريا في الانصراف وصعدت الى غرفتها وهناك تمددت على فراشها وراحت تفكر ..

ان ثروتها لم تعد تتجاوز ثلاثة جنيهات . وهي الآن تدين للفندق بأكثر من هذا المبلغ . واذا لم يكن ماركوس قد طالبها بشيء حتى الآن ، فمن المؤكد انه سيقدم لها فاتورة الحساب بعد يومين او ثلاثة .. او في نهاية الأسبوع على الأكثر أفلا يحسن بها ان تبادر من الآن الى البحث عن فندق رخيص ؟

ان كل آمالها تتركز الآن في ادوارد.. ولكن متى سيعود ادوارد من البصره وهل سيذكرها متى عاد ؟

ثم من يكون ادوارد هذا ؟ انها لا تعرف حتى لقبه .. لقد ارتكبت خطأ جسيما حين قررت القدوم الى بغداد وها هي الان بلا مال او عمل .. وليس هناك من تستطيع الإلتجاء اليه في طلب النصيحة ..

ان ماركوس .. رجل طيب ولكنه لا يصغي الى محدثه .. ومسز ترنش سيدة محترمة ولكن يبدو من سلوكها انها لا تثق بأحد . اما الدكتور راثبون فإنه لا يهتم بأمرها على الإطلاق .

* * *

وكانت لا تزال تفكر في امرها حين غلبها النعاس فاستغرقت في النوم ..

وفي هذه الأثناء ، كان كروسبي وداكين يتجاذبان اطراف الحديث بعد ان انصرف ماركوس ومسز ترينش .

قال الأول في همس :

ـــ ما رأيك في الفتاة !

ـــ يبدو انها ابنة أخ بونسفوت جونز .. عالم الآثار .

- ولكنها قدمت على نفس الطائرة مع كرفتون لي ؟

ـ لهذا يجب أن نتحرى عنها ..

قال ذلك ثم نظر الى ساعته ، واستطرد قائلا :

ـ سأذهب لمقابلة كرفتون لي ..

وفتح باب غرفة السير روبرت قبل أن يقرعه داكين .

ولم يكن بالغرفة سوى مصبـاح صغير على مقربة من المقعد الذي كان يجلس عليه السير روبرت قبل ان ينهض لاستقبال ضيفه ..

وضع السير روبرت المسدس الذي كان بيده على المائدة وقال وهو يجلس :

ـ هل تظن أنه سياتي يا داكين ؟

ـ اعتقد ذلك يا سير روبرت .. الم يسبق لك ان قابلته ..

- كلا ولكن سوف يسعدني ان اتعرف بشاب ذكي وشجاع مثله.. هل اتخذت جميع الاحتياطات اللازمة ؟

ـ نعم .. ان كروسبي في الشرفة . امـا أنا فسـأكمن في الدهليزلمراقبة السلم .. ومتى جاء كارميكل الى غرفتك فأطرق الباب ثلاث مرات فأنضم اليكما .

ـ سأفعل ذلك .

وغادر داكين الغرفة في هدوء كما دخلها ..

الفصل الثالث عشر

كانت فيكتوريا قد عقدت عزمها على أن تنام ملء جفنيها وتنسى همومها جميعا حتى صباح اليوم التالي ولكنها كانت قد قضت وقتاً طويلاً في فراشها بعد الظهر ، فاستيقظت بعد نحو ساعة ، وعبثاً حاولت التغلب على الأرق الذي استولى عليها ، وأخيراً اضاءت النور وقررت أن تمضي في قراءة قصة كانت قد بدأتها في الطائرة.

وفرغت من قراءة القصة ، واخذت تشغل نفسها بتجربة جورب النايلون الذي اهدتها اياه مسز كليب ، ثم شرعت في تدبيج بعض رسائل لطلب وظيفة

وبعد قليل تثاءبت واحست بالخمول . فآوت الى فراشها ..

ولكنها ما كادت تفعل ذلك حتى فتح باب غرفتها فجأة ودخل منه رجل استدار الى الباب واغلقه بالمفتاح . وهتف بها بصوت مرتجف :

— اخفيني بحق السماء .. واسرعي .

وكانت فيكتوريا دائماً سريعة الخاطر . وبنظرة واحدة سجل ذهنها الحقائق التالية :

أن الرجل يلهث ..

ان صوته لا يكاد يسمع ..

أن يده التي تضم الشنطة فوق صدره ترتجف ..
أن الغرفة لا يكاد يكون بها مخبىء لإخفائه ..
وانصرف تفكيرها على الفور الى الفراش وكان فسيحاً .
قالت تحدث الرجل :
- أسرع .
ورفعت الأغطية ، وأرقدت الرجل على الفراش بجوارها ، وغطته ..
ووضعت وسادتين فوقه .. وجلست على حافة الفراش ..
وفي نفس اللحظة سمعت طرقاً على الباب فهتفت قائلة
- من الطارق ؟
وجاء الجواب :
- الشرطة .. افتحي الباب ..
فضمت غلالتها حول جسدها واتجهت نحو الباب ..
ولكنها لمحت شملة زائرها الغامض ملقاة على الأرض ، فتناولتها وأخفتها في أحد الأدراج . ثم فتحت الباب ووجدت نفسها أمام شاب أسود الشعر ، يتبعه رجل في ثياب الشرطة .
سألت بصوت تعمدت ان يرتجف :
- ماذا حدث ؟
فأجاب الشاب بانجليزية مقبولة :
- يؤسفنا يا آنسة اننا ازعجناك في مثل هذه الساعة ، ولكننا نطارد مجرماً هارباً لجأ الى هذا الفندق ونحن بسبيل البحث في جميع الغرف .. انه مجرم خطير الى اقصى حد ..
- يا إلهي !!
وفتحت الباب على مصراعيه وسمحت لرجلي الشرطة بالدخول .. ولكن عملية التفتيش لم تستغرق سوى لحظة .

ثم قال الشاب :
— انه ليس هنا ..
— هل أنت واثق من ذلك ؟ الواقع انني تعودت أن أغلق الباب بالمفتاح قبل أن أنام ولكن .
— اطمئني يا انسة . في استطاعتك أن تعودي الى فراشك ..
- يجب أن اغلق الباب خلفكما بالمفتاح . ذلك أضمن .
— ذلك أضمن فعلاً . شكراً لك يا انسة .. أرجو لك ليلة سعيدة ..
وانصرف الرجلان ، وسمعتها فيكتوريا يطرقان باب الغرفة المقابلة .. ثم سمعت صوت مسز تريدش وهي تصيح مستنكرة ، واستمر الشرطيان يطرقان الابواب حتى ابتعداه من غرفتها ..
واقتربت فيكتوريا من الفراش وهي تلوم نفسها لاقدامها على مساعدة رجل غريب لمجرد انه يتكلم لغتها .. دون أن تفكر في أن هذا الرجل قد يكون مجرماً خطراً كما قال الشرطي ..
ووقفت أمام الفراش وقالت كلمة واحدة :
— انهض !!
ولكن الرجل لم يتحرك فقالت بصوت خافت :
— لقد رحلا . في استطاعتك أن تنهض ..
— ولما لم تر حركة أو تسمع جواباً ، رفعت الاغطية بجد ورأت الرجل جامداً في مكانه مغمض العينين ووجهه في لون الرماد ولاحظت في ذات الوقت وجود بقعة كبيرة من الدم على الاغطية . فاستولى عليها الذعر وغمغمت :
— كلا . كلا . كل شيء إلا هذا !!
وفي هذه اللحظة فتح الرجل الجريح عينيه ونظر اليها وتحركت شفتاه ، ولكن صوته كان خافتاً جداً فلم تسمعه ، وانحنت فوقه وسألت :
— ماذا قلت ؟

وتحركت شفتاه مرة اخرى . وخيل لفيكتوريا انها سمعت كلمتين لم تفهم لهما معنى :

- لوسيفر .. البصرة .

وتحركت شفتاه مرة أخرى بعد قليل .. ولكن فكتوريا لم تتبين جيداً ما قال :

ثم اهتزت أحداب الرجل بسرعة ، وجمدت عيناه في محجريهما ولم يبــد حراكاً بعد ذلك ..

وتسمرت فكتوريا في مكانها وخفق قلبها بشدة ..

لقد أحست بالرثاء لهذا الرجل الذي اسلم الروح أمامها في التو واللحظة . ولكن ماذا ينبغي عليها أن تفعل الآن ؟

لم تكن لديها أية فكرة !!

هل تستغيث ؟

-- ولكن بمن ؟

وماذا ستقول لرجال الشرطة إذا طلبوا منها ايضاحاً ؟

وسمعت جلبة فنظرت خلفها ، ورأت مفتاح البــاب يسقط على الارض .. وفي نفس اللحظة فتح الباب ودخل مستر داكين في هدوء ..

قال بصوت خافت :

ـ أحسنت يا بنية !! انك تفكرين بسرعة وتعملين بسرعة . كيف حاله؟

ـ أظن انه .. مات ..

وخيل اليها انها رأت عيني الرجل تتألقان غضباً .. ولكنه سرعان ما تمالك نفسه .. ولمحت فيكتوريا في وجهه سمات الرجل الحازم النشيط المتوقد ذكاء .. رجل يختلف تماماً عما عرفته عن داكين وانحنى هذا الاخير فـــوق الفراش ، وكشف عن صدر الميت ، وغمغم قائلاً .

ـ طعنة خنجر في القلب تماماً ..

ثم أردف في أسى :

– كان رجلا باسلا ..

فقالت فكتوريا :

– منذ لحظة كان هنا شرطيان قالا أنه مجرم خطير فهل كان مجرماً حقاً ؟

– كلا بغير شك .

– وهما ؟ هل كانا من الشرطة ؟

– لا اعلم .. ربما على أن ذلك لا يغير من الأمر شيئاً .

ثم قال بعد قليل :

– هل قال شيئاً قبل أن يموت ؟

– نعم .

– ماذا قال ؟

– قال (لوسيفر) ثم (البصرة) .. ثم نطق باسم يخيل الى انه فرنسي .. ولكني لم اسمعه جيداً ..

– ماذا كان ذلك الإسم ؟

(لافارج) . فيما اظن ..

– لافارج .

– ولكن ما معنى كل هذا ؟ وماذا يجب أن أفعل الآن ؟

فأجاب داكين .

– سنفعل كل ما في وسعنا لابعادك عن هذا الموضوع . أما معنى هـــذه الاحداث فذلك ما سوف أصارحك به عندما نجلس معاً .. المهم الان هــو ان نتصل بماركوس ونستطلع رأيه .. فهو صاحب الفندق وانسان متزن التفكير رغم ثرثرته وهذره .. الساعة الان الواحدة والنصف وأعتقد انه لم ينم بعد ..

وانصرف داكين ، وتهالكت فيكتوريا في أحد المقاعد وهي تشعر كأنهـا في حلم ..

وعندما عاد داكين ومعه ماركوس .. لم يكن هذا الاخير مرحا كعادته . ولم تكن على شفتيه ابتسامته الخالدة المألوفة ..

قال داكين :

ــ يجب أن تتعاون معنا يا ماركوس .. لقد اقتحم هذا الشخص هــذه الغرفة وهو في الرمق الاخير وكان البوليس يطارده فأخفته مس جونز بدافــع الاشفاق . ولكنه مات ..

أنها اخطأت بغير شك . ولكن ليس من الانصاف أن نلوم فتاة تصرفت بدافع مشاعرها النبيلة ..

فقال ماركوس :

ــ هل تريد أن اوضح الأمر لرجــال الشرطة ؟ انني أحبهم .. ولا اود التعامل معهم ..

فقال داكين :

ــ ان كل ما نريده .. هو نقل الجثة من هنا دون ان نثير انتباه أحد ..

ــ انني أرحب بذلك من كل قلبي .. فلست أحب أن يقال ان جثــة وجدت في فندقي .. ولكن كيف ؟

ــ أعتقد ان ذلك ميسور .. هل يوجد في اسرتك طبيب ؟

ــ نعم .. بول .. زوج اختي . انه شاب ظريف ولكني لا اريد أن أجلب له المتاعب ..

ــ لن تكون هناك متاعب .. ستنقل هذه الجثة اولاً الى غرفتي .. وبهذا تنتهي صلة مس جونز بالموضوع وبعد قليل سيأتي الى الفندق رجل ثمل ويطلب مقابلتي ويصعد السلم وهو يترنح ولكنه لا يصل الى غرفتي حتى يغمى عليــه فاتصل بك وأطلب طبيباً فيحضر زوج اختك ويستدعي سيــارة الاسعاف ويرافق صديقي السكير في السيارة الى المستشفى ، ولكن صــديقي يموت في الطريق .. لأنه كان مصاباً بطعنة في قلبه قبل أن يصل الى الفندق

– ويترك زوج أختي الجثة في المستشفى ، وغداً صباحاً يغادر السكير المزعوم الفندق في هدوء دون ان يثير ريبة أحد . أليست هذه هي الخطة ؟

– تماماً .

– والنتيجة .. ان الجثة لا توجد في فندقي .. وان مس جونز لا تواجه متاعب من اي نوع ..

– نعم ولكن عمال الفندق يتجولون في الاروقة الى ساعة متأخرة من الليل، فعليك أن تشغلهم بشيء ما ريثما انقل الجثة الى غرفتي .

– حسنا .. سأدعوهم للاجتماع بي في مكتبي لكي أبدي لهم بعض الملاحظات الهامة .

وانصرف ماركوس ، وقال داكين يحدث فكتوريا :

– هل يمكنك مساعدتي في نقل الجثة ؟

فأومأت برأسها علامة الايجاب .. وبعد بضع دقائق كانت الجثة مسجاة في فراش داكين .

وقال داكين يحدث فكتوريا :

– هل لديك مقص ؟ حسنا . عودي الى غرفتك وقصي من الاغطية المنطقة الملوثة بالدم وسألحق بك بعد ساعة

– وهل ستوضح لي معنى كل هذا ؟

فنظر اليها طويلاً .. ولكنه لم يجب على سؤالها .

الفصل الرابع عشر

أطفأت فكتوريا النور في غرفتها وأرهفت أذنيها . وسمعت مناقشة اشترك فيها رجل ثمل لا يبدو انه يهتم براحة الآخرين ، ثم سمعت رنين أجراس ووقع خطى كثيرة في الدهاليز . وبعد فترة من الوقت ساد صمت عميق لم يشبه سوى نغمات موسيقى عربية منبعثة من غرفة بعيدة .

وخيل لفكتوريا أنها انتظرت ساعات طويلة قبل أن يفتح باب غرفتها أخيراً في هدوء . فاعتدلت في فراشها ، وأضاءت المصباح الخافت الضوء . بينما جلس داكين على حافة الفراش وراح ينظر اليها بامعان كما ينظر الطبيب إلى المريض قبل أن يصارحه بنتيجة الفحص .

وتكلمت فكتوريا أولاً ، قالت :

ألا توضح لي معنى كل هذا ؟

فأجاب داكين :

ـ سأوضح لك كل شيء اذا تحدثنا عنك أولاً ، واذا ذكرت لي ماذا تفعلين هنا وماذا جاء بك الى بغداد .

وبدأت فكتوريا تتكلم ، ويبدو أنها تأثرت بشخصية داكين القوية فلم تحاول الكذب .

وبعبارات واضحة روت قصتها دون أن تخفي شيئاً فذكرت كيف قابلت أدوار . وكيف قررت القدوم الى بغداد مهما كلفها الأمر والمعجزة التي حدثت بظهور مسز كليب . والمأزق المالي الذي تعانيه في الوقت الحاضر .

فقال داكين :

– فهمت !

ثم استطرد قائلا بعد صمت طويل :

– كنت أود أن أجنبك التورط في هذه القضية ولكن كان ذلك مستحيلاً ، لأنك تورطت فعلا ، وغرقت في القضيـة الى أذنيك ، وما دام الأمر كذلك فلماذا لا تعملين لحسابي ؟

أحمر وجهها فرحاً وهتفت : هل تعرض علي عملاً ؟

– نعم . ولكنه عمل يختلف عن جميع الأعمال التي زاولتها عمل .. حافل بالأخطار .

– ولكنه شريف .. أليس كذلك ؟ صحيح انني الجأ الى الكذب في بعض الأحيان .. ولكني لا أقدم أبداً على عمل يحرمه القانون

فابتسم داكين وأجاب :

– الواقع انني لم أفكر فيك إلا لبراعتك في الكذب . ان العمل الذي حدثتك عنـه شريف فاطمئني . انك ستعملين في جانب النظام والقانون . وسأوضح لك الموقف بالقدر الذي يساعدك على فهم مهمتك ومعرفة الاخطار التي قد تتعرضين لها .. انك لا تفتقرين الى حسن الادراك ، ولكن من المحقق انك لم تتوفري في يوم ما على الالمام بمشكلات السياسة الدولية .

فأطرقت فكتوريا برأسها علامة الايجاب وقالت :

– ان كل ما أعلمه أن العـــالم يعيش فوق بركان وأن الحرب قد تقع بين يوم وآخر .

– ذلك ما يقال فعلا .. هل تعلمين لماذا ؟

– بسبب اختلاف المذاهب السياسية .. في امريكا وروسيا

– أري انك قد قرأت بعض الصحف ، واستمعت الى بعض الاذاعات . ان ما ذكرته هو الحقيقة على وجه التقريب ، فهناك عقيدتان سياسيتان .. تمثل الولايات المتحدة الامريكية احداهما ، وتمثل روسيا الأخرى . ولا شك أن أمل العالم في المستقبل انما يتوقف على السلام ، وأن السلام لن يتوطد ، إلا اذا اعترفت كل من هاتين الدولتين بحق الأخرى في اعتناق المذهب السياسي الذي يوائمها وتطبقه في مناطق نفوذها فحسب ، أو اذا اتفقتا على التعايش والتعاون. ولكن من سوء الحظ أن ما يحدث هو عكس ذلك تماماً ..

وان الهوة بين المعسكرين تزداد عمقـاً يوماً بعد يوم ، حتى انتهى الأمر ببعض النـاس الى التساؤل . الا يمكن ان يكون تعميق الخلافـات بين هذين المعسكرين من عمل قوة ثالثة لا نعرفها في الوقت الحاضر ؟ . ذلك لانه كلما حدث تقارب بين المعسكرين الرئيسيين وكلما لاحت تباشير اتفاق بينهما ، وقع حادث أفسد كل شيء . وأثار شكوك كل من المعسكرين ومخاوفـه من المعسكر الآخر .

وهذه الأحداث التي تفرق بين المعسكرين ليست وليدة المصادفات .. انها مقصودة ، ومدبرة .

– مدبرة ؟ لماذا ؟ وكيف ؟

– كيف ؟ ان الوسائل كثيرة.. وأهمها المال .. ان المال وراء كل ما يحدث في العالم اليوم ، ومصدره في القضية التي نحن بصددها لا يزال موضع شك .

اننا نرى بين وقت وآخر اضرابات واضطرابات عمالية تحدث فجأة هنـا وهناك فتزعزع مراكز حكومات تعمل في الواقع لمصلحة شعوبها . ان العمال يقدمون على الاضراب بسلامة نيـة ، ظناً منهم أنهم يدافعون عن مصالحهم وحقوقهم .. ولكن من أين يأتي المال الذي يمول الاضرابات والحركات العمالية ؟ أن اموالاً ضخمة تختفي من الاسواق ولا أحد يعرف مصيرها . وكميات هائلة

من الماس والأحجار الكريمة تشترى من اسواق متعددة . ثم تختفي ولا أحد يعلم أين ذهبت .

– ولكن . .

– ان ما أريدك أن تفهميه يا فكتوريا هو ان هناك جماعة لا نعرف نواياها على وجه التحديد ، ولها مصلحة في تعميق الخلافات بين المعسكرين الكبيرين ولدينا من الأسباب ما يحملنا على الأعتقاد بأن لهذه الجماعة وكلاء في جميع بلاد العالم ، وان بعض هؤلاء الوكلاء يشغلون مراكز خطيرة .. فهم طابور خامس لا يعمل على المستوى القومي فحسب ، وانما يعمل كذلك على المستوى العالمي .

– ولكن من هم هؤلاء الوكلاء ؟

– نحن نظن أنهم أناس ليست لهم جنسية محددة . يخشون أن يعم السلام ويسود الرخاء . . ويعتقدون أنهم الفئة المختـــارة لاخضاع هذا العالم المنحل لارادتهم وفرض سلطانهم ونظامهم عليه قوة وقهراً .

هذه الجماعة التي لا استطيع تعريفها بطريقة أدق ، تباشر نشاطها من خلال مراكز متعددة احدها في الأرجنتين واخر في كندا .. وثالث – وربما أكثر – في الولايات المتحدة الأميركية ، وقد لوحظ خلال العامين الأخيرين أن ثمـانية وعشرين من كبار العلماء الذين ينتمون الى جنسيات مختلفة .. اختفوا تماماً كما لو كانت الأرض قد انشقت وابتلعتهم . لا أحد يعلم أين ذهبوا . او مـاذا كان مصيرهم وقد حدث مثل ذلك لكثيرين من الطيـــارين والمهندسين والفنيين . كذلك لوحظ انهم جميعاً من الشبان الطموحين الذين ليست لهم روابط عائلية .

فأين ذهبوا ؟

لا احد يعلم .. ولكن بدأت تتكون لدينا فكرة عما في استطـــاعتهم ان يفعلوا .

وكانت فكتوريا تصغي في اهتمام وشغف ، فمضى داكين في حديثه .. قال

– في هذا العصر الذي نعيش فيه ، يصح أن يقال انه لا يوجد بلد يمكن أن

تقام فيه مصانع ضخمة تنتج في سرية تامة .. ومع ذلك فانه توجد مناطق نائية بعيدة عن العمران وخطوط المواصلات . تحيط بهـــا الجبال والصحاري .. وتسكنها قبائل تبغض الأجانب والدخلاء ولم يجرؤ على ارتيادهـا سوى عدد قليل جداً من المغامرين .

في مثل هذه المناطق ، يمكن أن تحدث امور لا يعرف عنها العالم الخارجي شيئاً .

وهناك منطقة بعينها ، يصل اليها الإنسان عن طريق الصين أو باجتيـــاز الهيمالايا في رحلة شاقة طويلة ، وعلى الرغم من ذلك فانهم ارسلوا اليها الآلات والمواد ، والموظفين من شتى انحاء العالم ..

رجل فذ واحد ارتاب في الأمر ..

رجل ولد في (قشجار) واجاد الحديث بلغات الشرق ولهجـــاته ، وله اصدقاء واتصالات في كل مكان ..

هذا الرجل وقع على الاثر وتتبعه ، ولما عـــاد الى العالم المتحضر .. قدم تقريراً لم يصدقه رؤساؤه لفرط غرابته فلم يسعه اخر الأمر الا الاعتراف بأنه ربما كان محموماً يهذي او كان يحلم .

شخصان فقط صدقـا ما جاء في التقرير . كنت انا احدهما .. فلقد حدثت المستحيلات امام عيني اكثر من مرة . مما جعلني انبذ التشاؤم .

أما الشخص الآخر فكان السير روبرت كرفتون لي ، الرحالة المشهور ، الذي زار بنفسه تلك المنطقة وقال انها يمكن أن تنطوي على مفاجآت مذهلة .

وتشجع كارميكل – وهذا هو اسم الرجل الفذ الذي ذكرته – وقرر أن يذهب الى المنطقة لتقصي الحقيقة .

كانت رحلة محفوفة بالأخطار ، ولكنه كان كفؤاً لها ..

وبدأ كارميكل الرحلة منذ تسعة شهور ، ولكن لم تصلنـا انباؤه الا منذ بضعة اسابيع .. فعلمنا انه تحقق من صدق روايته .. وانه في طريقه الينا ومعه

الأدلة . ومزيد من المعلومات

غير ان الأعداء اكتشفوا امره .. الأعداء الذين يهمهم الى اقصى حد الا يعود بالأدلة . فوضعوا الرقابة على الحدود . وقتلوا بعض الأبرياء لمجرد الشبهة في ان يكون احدهم هو كارميكل ورغم ذلك استطاع كارميكل الأفلات . وظل سليماً معافى حتى مساء اليوم .

– اذن فالرجل الذي قتل الليلة . كان هو ؟

– والأدلة التي جاء بها .. هل سلبوه اياها ؟

فارتسمت على شفتي داكين ابتسامة باهتة وأجاب :

– ان من يعرف كارميكل كما اعرفه . يرتاب في ذلك . مما لا شك فيه أنهم لم يسلبوه الأدلة كل ما في الأمر أنه مات دون ان ينقلها الينا او يرشدنا الى مكانها ، لقد حاول ذلك واعتقد ان كلمات (لوسيفر – البصرة – لافارج) هي مفتاح السر .

لقد مر بالبصرة وذهب الى القنصلية ليقدم تقريره ولكنه كاد يقتل في قاعة الانتظار .. وانا اعتقد انه ترك الأدلة التي ننشدها في مكان ما بالبصرة ، واريدك ان تذهبي انت الى هناك للبحث عنها .

– انا ؟

– نعم .. انت ، انك تفتقرين الى الخبرة ولا تعرفين الشيء الذي تبحثين عنه .. ولكنك سمعت آخر كلمات نطق بها كارميكل .. فاذا ذهبت الى البصرة فان هذه الكلمات قد توحي اليك بشيء .. من يعلم ؟ ان الحظ يخدم (الغشيم) كما يقول المثل .

– كم يسعدني ان اذهب الى البصرة !!

قالت ذلك بحماسة فلم يتمالك داكين من الابتسام .

قال :

– لأن صديقك هناك !! سبب معقول . لن يرتاب فيه احد ولن نجد افضل منه .

اذهبي اذن الى البصرة وافتحي عينيك واذنيك . وانظري حولك جيداً ..
انا لا استطيع أن اصدر اليك أية تعليمات . واعتقد ان ذلك افضل ..
فانت لا تنقصك سعة الخيال ، ولا سرعة الخاطر .

ابحثي عن معنى كلمتي (لوسيفور) و (لافارج) وانا اعتقد مثلك ان (لافارج) هو اسم احد الأشخاص .

– ولكن كيف اذهب الى (البصرة) . ومن اين لي النقود .

فاخرج داكين حافظة نقوده ، وقدم للفتاة حزمة من الأوراق المالية وهو يقول :

– اما النقود فها هي . واما الرحلة فعليك ان تقابلي غداً مسز كارديوترينش تلك العجوز الثرثارة ، قولي لها في معرض الحديث انك تريدين السفر الى البصرة للحاق ببعثة عمك المزعومة الأستاذ بونسفوت جونز .. واطلبي اليها ان تدلك على فندق هناك . وستجيبك بان القنصلية سوف يسرها ان تستضيفك وانها ستبرق الى مسز كلايتون زوجة القنصل لتستقبلك .. واعتقد انك ستقابلين ادوارد هناك ان جميع الانجليز الذين يمرون بالبصرة ينزلون في ضيـــافة آل كلايتون ونصيحتي الأخيرة اليك .. هي انك اذا وقعت في مأزق وطلب اليك الافضاء بما تعلمين ولحساب من تعملين .. فلا تصطنعي الشجاعة والبطولة بل اعترفي بكل شيء ..

– يسرني ان أسمع ذلك .. ولكني قوية الارادة ، ومهما عذبوني فلن انطق بكلمة .

– لن يعذبك أحد ، فالتعذيب وسيلة عتيقة ان حقنة صغيرة تكفي لأن تحل عقدة لسانك . وتجعلك تجيبين بصدق واخلاص على كل ما يلقى عليك من أسئلة ولذلك لا ينبغي الاحتفاظ بأسرارك اذا كان الثمن باهظاً .. وهم فضلاً عن ذلك يعرفون كل شيء ولن يجدوا في اعترافك أية معلومات جديدة.

ان ما حدث الليلة لا يدع لديهم مجالاً للشك في الدور الذي اقوم به .. او

الدور الذي يقوم به السير روبرت .

– وادوارد . هل أطلعه على مجرى الأمور ؟

– ذلك أمر اتركه لك . المفروض من حيث المبدأ الا يعلم أحد بمهمتك في البصرة .. اما من الناحية العملية .

ونهض واقفاً دون ان يتم عبارته ، ثم استطرد قائلاً :

– اذا انت صارحته بكل شيء فانه سيتعرض لنفس الأخطـار مثلك ولكني أعلم انه كان طياراً وانه ابلى بلاء حسناً في الحرب . ولذلك اعتقد ان الأخطار لن تخيفه . هل قلت لي ان معهد (غصن الزيتون) الذي يعمل فيه ادوارد ، يثير ريبته ؟ اذا صح ذلك كان أمراً خليقاً بالاهتمام .

– لماذا ؟

– لأن ذلك هو انطباعنا نحن ايضاً عن هذا المعهد .

والآن ساقول لك شيئاً آخر قبل ان انصرف .. حـاولي الا تتورطي في اكاذيب ضخمة .. وافتحي أذنيك جيداً واذا سمعت اسم هيلين شير فافتحيهما اكثر واكثر ..

– هيلين شير ؟ من هي ؟

– نحن لا نعرف عنها الا القدر اليسير .. ولكن يهمنا ان نعرف المزيد .

الفصل الخامس عشر

هتفت مسز كارديو تريفش قائلة :

- فندق المطار ؟ كلا .. لا تفكري في ذلك .. يجب ان تقيمي بدار القنصلية .. ان كلايتون وزوجته سيسرهمـــا ان يرياك .. انني اعرفهما منذ سنوات عديدة ، ثم انهما من اصدقاء الدكتور بونيسوت جونز .. سأبرق اليهما الان وعليك ان تستقلي قطار المساء .

واحمر وجه فيكتوريا ..

ان كذبة اسقف (لأنجو) كانت افضل من كذبة بونسفوت جونز الذي يحتمل في اية لحظة ان تجد نفسها معه وجهاً لوجه .

على ان الرحلة كانت بالنسبة اليها شيئاً جديداً مثيراً .. وقد وجدت سيارة رسمية بانتظارها في محطة البصرة .. فاستقلتها الى دار القنصلية ..

كانت القنصلية تشغل (فيلا) كبيرة تحيط بها حديقة مترامية الأطراف ، وبالطابق الأول من الفيلا شرفة فسيحة تدور حول المبنى كله ..

وقد خفت مسز كلايتون لاستقبال فكتوريا بالباب وهتفت وعلى شفتيها ابتسامة ساحرة :

- كم يسرنا أن نراك ايتها العزيزة .. أن البصرة رائعة في هذا الفصل من

السنة .. والجميع يعلمون ذلك ويسارعون للاقامة فيها .. وأحياناً كنا نجد صعوبة فى توفير مكان لجميع الزائرين .. ولكن من حسن الحظ أن الأمر يختلف الآن .. فليس لدينا سوى ضيف واحد يعمل مع الدكتور راتبون وهو شاب ظريف سوف تقابلينه .. وقد فاتتك مقابلة ريتشارد بيكر الذي رحل أمس ، وهو أيضاً شاب مهذب يعد من خيرة علمائنا الشباب ..

وفكرت فكتوريا .. ترى من يكون ريتشارد بيكر هذا ؟

لعل من الخير انه رحل .. فان أحداً لا يهمها سوى ادوارد ..

ومضت مسز كلايتون في حديثها قالت :

– لقد رحل إلى الكويت لقضاء يومين هناك . ولكن حدثيني أيهما تفضلين أولاً .. الاستحمام أم الغذاء ؟. وفضلت فكتوريا الاستحمام أولاً . ورافقتها مسز كلايتون إلى غرفتها .. وهناك اغتسلت وصففت شعرها وأصلحت زينتها استعداداً للقاء الرجل الوحيد في حياتها .

كان يهمها أن تنفرد به أولاً ولو لفترة قصيرة حتى لا تفتضح صلتها المزعومة بالدكتور بونسفوت جونز . فأطلت من الشرفة وراحت ترقب قدومه ..

وبعد قليل رأت رجلاً طويل القامة نحيفاً يجتاز الحديقة فتوارت عنه في غرفتها ، حتى إذا سمعت وقع قدميه على سلم القنصلية عادت إلى مكانها في المقصورة ..

وما هي إلا لحظة حتى أبصرت بادوارد يجتاز الحديقة فهتفت بصوت خافت :

– إدوارد .. إدوارد ..

ورفع الشاب رأسه ولاحظت انه اكثر وسامة مما كان عندما قابلته في لندن فهمست قائلة :

– اقترب .

فنظر اليها في دهشة وهتف :

- مستحيل ! انني لا أصدق عيني .

فهمست قائلة :

- أبق حيث أنت وسألحق بك ..

وهبطت الدرج مسرعة ووجدت ادوارد في مكانه وقد تملكته الدهشة . قال حالما رآها .

- انني لا أصدق عيني . أهذه أنت حقاً ؟

- هأنذا بلحمي وعظمي ..

- ولكن ماذا تفعلين هنا .. وكيف جئت ؟ كنت أظن انـني لن اراك ابداً

- ذلك ما ظننته أنا ايضاً .

- ولكن ماذا جاء بك هنا ؟

- الطائرة ؟

- مفهوم ولكن اية مصادفة سعيدة ساقتك إلى البصرة؟ كيف قدمت إلى هنا ؟

- بالقطار ..

- يا لك من خبيثة !! أجيبي بحق السماء !

- لقد جئت برفقة سيدة أمريكية كسرت ذراعها .. تدعى مسز كليب .. وقد عرضت على مرافقتها غداة يوم رحيلك .. وكنت قد ضقت بلندن فقلت لنفسي انه ليس ثمة ضرر من تغيير الجو .

- انك رائعة يا فكتوريا .. وهذه المسز كليب .. أهي هنا في البصرة ؟

- كلا .. إنها رحلت لزيارة ابنتها في كركوك .. كان الاتفاق ان ارافقها خلال الرحلة إلى بغداد فحسب ..

- وماذا تفعلين الآن ؟

- ما زلت أحاول الإفادة من تغيير الجو .. وكان طبيعياً في سبيـل ذلك

أن الجأ إلى الحيلة والخداع ولهذا حرصت على التحدث اليك قبـل أن نلتقي أمام الآخرين .. حتى لا تعلن على الملأ انني كنت في آخر لقـاء بيننا مجرد كاتبة اختزال متعطلة .

– اطمئني . قولي لي ماذا زعمت عن نفسك فأؤيد مزاعمك ..

– زعمت انني ابنة أخ الدكتور بونسفوت جونز عـالم الاثار المشهور .. وانني سألحق به بعد بعض الوقت .

– وطبعاً لا صحة لشيء من هذا كله ؟ ولكن هبي انك تقابلت مـع الدكتور بونسفوت جونز ؟

– انني استبعد ذلك .. فقد قيل لي أن عالم الاثار إذا ابتـدأ في احدى الحفريات فانه لا يبرح مكانه ولا يفكر في أي شيء آخر .

– قيل لي أنا أيضاً شيء بهذا المعنى .. ولكن هل لبونفسوت جونز ابنة أخ حقاً ؟

– وفي أين لي أن اعلم ؟

– إذن فأنت لم تنتحلي شخصية فتاة أخرى ؟ إن هذا أقل خطورة ..

– أليس كذلك ؟ ثم انني أستطيع عند الضرورة أن ازعم انني ابنة عمه ، ولكني تعودت أن ادعوه (عمي) .

– انك تفكرين في كل شيء يا فكتوريا .. انت فتاة مدهشة حقاً .. ولكن هل فكرت في مزاولة عمل ما ؟

– انني أسعى للحصول على عمل ، وقد ذهبت الى (غصن الزيتون) وقابلت الدكتور راتبون فوافق على ان اعمل في المعهد ولكن مجاناً .

– يا له من وغد عجوز !! انه يريد ان يعمل الناس معه حباً في الأدب والفن ..

– هل هو محتال ؟

فتردد ادوارد قليلا قبل ان يجيب :

– الواقع انني لا استطيع ان ابدي رأياً ، فهو يعمل من أجل فكرة ، ويعمل باخلاص ، والمعهد لا يدر عليه ربحاً .. ولكني مع ذلك لا أتمالك من الاحساس بأن في الامر ما يريب .

فقالت فكتوريا :

– هلم بنا ندخل ، ولنحدث في ذلك فيما بعد .
هتفت مسز كلايتون حالما ابصرت بهما :
– لم يخطر ببالي قط ان كلا منكما يعرف الآخر !!
فضحكت فكتوريا وأجابت :
– اننا صديقنان قديمان .. ولكني لم اتوقع ان أجده هنا .

وقال كلايتون ، وهو الرجل الطويل النحيف الذي رأته فكتوريا من شرفتها – محدثاً ادوارد :

– هل فرغت من عملك في الجمرك ؟
– كلا .. ولا تزال صناديق الكتب في مكانها .. والافراج عنها يتطلب اجراءات لا نهاية لها .

فابتسم كلايتون وقال :

– هكذا الحال في الشرق .. لا شيء يتم بسرعة .
– يخيل إلي في بعض الأحيان انهم يتعمدون الابطاء فالمسؤولون قلما تجدهم في مكانهم عند الحاجة اليهم .. إن نواياهم تبدو طيبة ، والجميع على استعداد للتعاون والمساعدة ولكن لا شيء يتحرك من مكانه .

وضحك فقالت مسز كلايتون :

– لا شك انك ستصل إلى نتيجة ان عاجلا او آجلا ، وقد أحسن الدكتور رابتون باختيارك لهذه المهمة ، ولولا ذلك لبقيت الصناديق في الجمرك شهوراً عديدة .
– منذ بدأت أحداث فلسطين وهم يخشون القنابل والمطبوعات المثيرة ..

أنهم يرتابون في كل شيء .

فقالت مسز كلايتون وهي تنظر الى زوجها :

– أرجو ألا يجدوا في صناديق الدكتور راتبون بعض القنابل ..

فأجاب الزوج :

– يا صديقتي العزيزة ، ان الدكتور راتبون عـــالم كبير وعضو في عدة أكاديميات ، ورجل معروف ومحترم في أوروبا كلها ..

وكان في صوته ولهجته معنى التأنيب ، ولكن زوجته تجاهلت ذلك وقالت :

– ما دام الأمر كذلك فانه يستطيع الاشتغال بتهريب الأسلحة دون أن يثير ريبة أحد .

فلم يجب كلايتون ، ورأت فكتوريا على وجهه دلائل الامتعاض .

وبعد الغذاء خرجت فكتوريا وأدوارد للنزهـة على ضفة (شط العرب) وتوغلا في سيرهما حتى وصلا الى السوق ، ثم عادا في الطريق الى القنصلية ..

وفجأة ، قالت فكتوريا لصاحبها :

– حدثني يا أدوارد . ما لقبك ؟. انك لم تذكر لي اسم اسرتك ..

– يا إلهي !! هذا صحيح .. ان اسمي كاملاً هو ادوارد جيرنج .

– الواقع انني شعرت بشيء من الحرج حين ذهبت إلى غصن الزيتون .. للسؤال عن شخص لا أعرف عنه الا انه يدعى أدوارد .

– ألم تقابلي هناك فتاة ذات شعر أسود ؟

– نعم .

– انها تدعى كاترين ، وهي فتـــاة ظريفة . ولو قد ذكرت أمامها اسم أدوارد لعرفت على الفور من تعنين

أنا واثق من انك وكاترين سوف تصبحان خير صديقتين .

– لا أظن أن هناك ما يدعو للقائنا .

– ولم لا ؟ سأسعى لالحاقك بعمل في غصن الزيتون .

ـ كيف ؟

ـ لا أعلم .. ولكني سأفكر في الأمر .. سأقول لراتبون انك تجيـدين الاختزال والكتابة على الآلة الكاتبة الخ.. الخ..

ـ ولكنه سوف يلاحظ أن هذه ليست الحقيقة .

ـ مهما يكن الأمر ، فسأجد لك عملاً في المكتبة .. لأنني لا أرضى أن تقضي وقتك في الطواف هنا وهناك بحثاً عن وظيفة .. ولكني أصارحك من الآن بأن العمل في المعهد لن يكون سهلاً كما تتوهمين ..

ـ ذلك بالاضافة الى أن نشاط المعهد يثير الريبة .. أليس هذا هو رأيك ؟

ـ أعتقد أنني قلت ذلك ..

ـ وأنا بدوري أعتقد انك على حق ..

فتحول اليها وسألها بجدة :

ـ وما حملك على هذا الاعتقاد ؟

ـ بعض أمور سمعتها من أحد أصدقائي .

ـ من هو ؟

ـ أحد الأصدقاء ..

فقلب أدوارد شفته ولم يجب .. وقالت فكتوريا بعد لحظة :

ـ حدثني يا أدوارد .. ألا يوجد بين المترددين على غصن الزيتون شخص يدعى (لافارج) ؟

ـ لافارج ؟. كلا .. من يكون لافارج هذا ؟

ـ وهيلين شيل ؟ ألا يذكرك هذا الأسم بشيء .

وكان رد الفعل في هذه المرة سريعاً ، فقد استـدار أدوارد الى فكتوريا وأمسك بيدها بشدة وسأل :

ـ ماذا تعلمين عن هيلين شيل ؟

ـ دع يدي يا ادوارد . انك تؤلمني .. أنا لا أعلم عنها شيئاً .. اني أسألك

اذا كنت تعرف شيئاً .

ـ من حدثك عنها ؟ مسز كليب ؟

ـ كلا .. لا أذكر تماماً .

ـ وما يحملك على الظن بأن هيلين شيل صلة بغصن الزيتون ؟

ـ وهل أخطأت في هذا الظن ؟

ـ لا أعلم . لا أعلم .. كل شيء يبدو غامضاً .

وكانا قد وصلا الى سور الحديقة فنظر أدوارد الى ساعته وقال :

ـ يجب أن أذهب لمقابلة رجال الجمرك .. مما يؤسف له انني لا أعرف اللغة العربية . سأتركك الآن ولكن لوقت قصير .. فان هناك أشياء كثيرة أريد أن أسألك عنها ..

ـ وأنا لدي أشياء كثيرة أريد أن أقولها لك ..

وفي المساء ، خرج الشابان للنزهـــة مرة أخرى ، وشغلهما الحديث عن الاستمتاع بجمال الطبيعة في ضوء القمر ..

وكانت فيكتوريا قد قررت مصارحة أدوارد بقصتها ، فقالت :

ـ لقد بدأ كل شيء ببساطة تامة .. فتح باب غرفتي بفندق تيو .. ودخل رجل .. ولم يلبث الرجل أن مات بضربة خنجر .

ـ ماذا قلت ؟

ـ قلت انه مات بضربة خنجر .. ولو قد استخدموا في قتله مسدساً لسمعت صوت الطلق الناري .. مهما يكن الأمر فانه مات ..

ـ مات ثم دخل غرفتك ؟

ـ لا تكن مغفلاً يا ادوارد ..

وسردت عليه القصة كلها .. ولكن ليس بالبراعة التي اعتادت أن تكذب بها .. وكانت النتيجة أن ادوارد سألها حالما فرغت من قصتها :

ـ هل أنت بخير يا فكتوريا ؟ هل انت واثقة من انك لم تصابي بضربة شمس ؟

فنظرت اليه مستنكرة .. ولم تجد ما تعقب به على سؤاله فقال :

ـ أنك تذكرين أموراً لا يمكن تصديقها . فالمنظمة العالمية التي عنها تتحدثين . والاستعدادات السرية التي تجري في التيبت او بلوخستان .. كل هذه امور لا وجود لها إلا في القصص. حقاً انك فتاة خصبة الخيال يا فكتوريا اعترفي بأن كل ما ذكرته هو من اختراعك .. وانك ما سألتني عن هيلين شيل إلا لتؤيدي قصتك الخيالية .

ـ ولكنك سمعت بهذا الاسم من قبل .. أنا واثقة من ذلك ..

ـ اعتقد ان بعضهم ذكره أمامي ..

ـ أين ؟ في غصن الزيتون ؟

ففكر ادوارد لحظة ثم قال :

ـ ربما .. أن الأمر يبدو غريباً ..

ـ تكلم ..

ـ أني اعجب بك يا فكتوريا .. ولكني لست مثلك .. وليس لي ذكاؤك . انني أشعر بالأمور .. ولكني لا أحسن التعبير عنها ..

ـ إذن لا تجهد نفسك . فانني أعرف هذا الشعور . وقد خالجني آخر مرة في فندق (تيو) عندما رأيت السير روبرت جالساً في الشرفة .

ـ السير روبرت ؟

ـ نعم . السير روبرت كروفتون لي .. لقد كان معي في الطائرة .. ولكني عندما رأيته في شرفة الفندق . أحسست أحساساً غامضاً بأنه غير طبيعي .. وأنه يفتقر الى شيء يكمل انطباعاتي الأولى عنه . أما ما هو هذا الشيء . فذلك ما لا اعلمه ولا استطيع التعبير عنه ..

ـ أعتقد أن راتبون طلب اليه القاء محاضرة في غصن الزيتون .. ولكني

أظن انه استقل الطائرة امس الى دمشق او الى القاهرة ..

– لنعد الى حديثنا عن هيلين شيل ..

– كل ما اذكره . هو انني سمعت احدى الفتيات تردد اسمها ..

– كاترين ؟

– ربما كانت هي ..

– وماذا قالت عن هيلين شيل ؟

– كانت تتحدث مع فتاة أخرى في غصن الزيتون .. وسمعتها تقـــول : سوف تتغير الأوضاع لدى وصول هيلين شيل . فاننـــا لا نتلقى الأوامر إلا منها .. ومنها وحدها .

– ألم يثر هذا الكلام دهشتك وفضولك يا إدوارد ؟

– كلا .. فلقد قلت لنفسي انها ربما تنتظران رئيسة جديـدة لشؤون المكتبة .. ولكن أصدقيني يا فكتوريا .. هـل انت واثقة من أن القصة الـتي سردتها على لم تكن مجرد حلم ؟

فرمقته بنظرة صاعقة أرغمته على التراجع .. والاعتذار .

قال :

– معذرة يا فكتوريا .. الواقع انني لم أستطيـع تجاهل القصص العجيبة التي دأبت على اختراعها ، كقصة أسقف لانجو . وقصة بونسفوت جونز .. وغيرهما .

فهزت كتفيها وأجابت :

– هذه كانت مجرد دعابات صبيانية .. أما القصة التي سردتها عليك اليوم فإنها جدية .. وعلى جانب عظيم من الأهمية ..

– وهل أحسست بأن المدعو داكين كان مقتنعـاً بصحة المعلومات الـتي ذكرها لك ؟

– كان مقتنعاً تمام الاقتناع . ولكن حدثني يا ادوارد كيف علمت ..

ولم تتم عبارتها ، فقد سمعت في هذه اللحظة صوتاً صادراً من الشرفة يهتف بهما :

ـ أما آن لكما أن تدخلا ؟ لقد اعددت لكما أقداح القهوة ..

كان ذلك صوت مسز كلايتون ، فهرول الشابان الى الداخل ..

كانت فكتوريا تتناول طعام الافطار على مائدة آل كلايتون في صباح اليوم التالي ، حين فتح جيرالد كلايتون جهاز الراديو لسماع نشرة الاخبار ..

وشرع المذيع في تلاوة الانباء قال :

أعلن رئيس الوزراء في مجلس العموم أمس تفصيلات جديدة عن قيود الاستيراد ..

جاء من القاهرة أن جثة سير روبرت كرفتون لي وجدت طافية في النيل..

فوضعت فكتوريا قدح الشاي على المائدة أمامها ونظرت في هلع الى مسز كلايتون التي ارسلت آهة ذعر ودهشة ..

ومضى المذيع يقول :

كان السير روبرت قد وصل بالطائرة الى القاهرة قادماً من بغداد.. ونزل بأحد الفنادق الكبرى بالعاصمة المصرية ، وغادر الفندق في المساء وانقطعت اخباره طوال الاربع والعشرين ساعة التالية الى أن وجدت جثته ، وقد أثبت الفحص الطبي انه لم يمت غرقاً وإنما قتل بطعنة خنجر أصابت القلب ..

والسير روبرت رحالة ذائع الصيت اكتسب شهرته من رحلاته في الصين وبلوخستان .. وله بضعة مؤلفات قيمة ..

قالت مسز كلايتون وقد فر لونها :

ـ مات مقتولاً ؟ يا إلهي !! هل كنت تعلم ذلك يا جيرالد ؟

فأجاب كلايتون :

ـ علمت انه اختفى .. ويبدو أن شخصاً حمل اليه رسالة فقرأها وغادر الفندق على الأثر .. دون أن يذكر اسم المكان الذي ذهب اليه ..

* * *

وبعد لحظات ، خلا المكان إلا من فكتوريا وادوارد فقالت الفتاة :

– ما قولك الان؟أما زلت تعتقد انني اخترعت القصة؟لقد قتل كارمايكل أولاً . ثم لحق به سير روبرت .. ويبدو ان كل من له صلة بالموضوع مصيره الى الهلاك .. ومن يدري فلعل دوري قد قرب ..

– أرجوك يا فكتوريا .. لا تتكلمي بهذه اللهجة كما لو كان الأمر مجرد دعابة ..على انني لا أرى ما يبرر مخاوفك . فانك لا تعلمين شيئاً بصفة مؤكدة وليس لك في الموضوع أي دور إيجابي.. وموقفك منه لا يختلف عن موقفي .

– انا الذي جررتك الى هذا المأزق ..

فهز كتفيه وقال :

– أرجو أن أكون في مأزق حقاً .. فان ذلك يضفي شيئاً من الاثارة على الحياة المملة التي أحياها ..

الفصل السادس عشر

- ١ -

قال داكين :

- حدثيني .. هل وجدت صديقك ؟

فأومأت فكتوريا برأسها علامة الإيجاب ..

قال :

- وهل اكتشفت شيئاً ؟

- كلا ..

كانت تبدو عليها دلائل الضيق فابتسم داكين وقال :

- ليس ثمة ما يدعو الى الاسى .. ونبغي أن تذكري دائماً ان النتائج في هذه اللعبة قلما تأتي بسرعة ..

- وهل استمر ؟

- هل يهمك ان تستمري ؟

- طبعاً . فقد وعدني ادوارد بعمل في غصن الزيتون وأعتقد انني إذا فتحت عيني هناك فقد أقع على بعض الأمور الهامة .. وخاصة عن هيلين شيل. انهم يعرفونها هناك ..

– أحقاً تقولين ؟ وكيف اكتشفت ذلك ؟

فقصت عليه فكتوريا ما سمعه ادوارد من كاترين وقال داكين :

– هذا أمر على جانب عظيم من الاهمية ..

– ولكن من هي هيلين شيل هذه ؟ هل تعرف عنها شيئاً ؟ ام انها بالنسبة اليك مجرد اسم ؟

– هيلين شيل هي سكرتيرة أحد كبار الماليين في امريكا ومدير أحد البنوك الدولية الكبرى .. وقد رحلت من نيويورك الى لندن منذ عشرة أيام واختفت بعد ذلك ..

– اختفت ؟ لا شك انك لا تريد ان تقول انها ماتت ..

– إذا كانت قد ماتت فان جثتها لم توجد ..

– ولكن هل ماتت ؟

– ربما ..

– وهل كان يجب أن تأتي الى بغداد ؟

– اعلم ولكن إذا صح ما سمعه ادوارد من المسماة كاترين فلا بد ان هيلين شيل كانت تنوي الحضور الى بغداد .. على انه ليس لدينا حتى هذه الساعة ما يحملنا على الاعتقاد بأنها ليست على قيد الحياة ..

– ربما استطعت ان التقط بعض الانباء عنها في غصن الزيتون ..

– ربما ، ولكني أناشدك أن تكوني حذرة .. فنحن نناضل اشخاصاً لا يتحرجون من شيء .. ولست أريد ان يعثر على جثتك يوماً ما طافية في نهر دجلة ..

– كما عثر على جثة السير روبرت كروفتون لي ؟ وبمناسبة الحديث عن سير روبرت .. لقد لاحظت عندما رأيته في فندق (تيو) منذ أيام ان شيئاً فيه أثار حيرتي ..

– شيئاً فيه أثار حيرتك ؟ أي شيء تعنين ؟

– هذا ما أحاول أن اتبينه .. ولعله أمر لا يستحق الاهتمام ..
– ان اتفه الامور قد تكون له اهمية كبرى ..

– من رأى إدوارد انني إذا وفقت الى عمل في غصن الزيتون فيجب ان انتقل من فندق تيو الى غرفة مفروشة عند احدى العائلات اسوة بالفتيات اللائي يعملن في المعهد .
– الواقع ان ذلك أفضل .. يبدو ان صديقك ادوارد شاب متزن التفكير ..
– هل تريد أن تقابله ؟
– كلا، بل قولي له ألا يحاول مقابلتي حتى لا يتورط في الموضوع كما تورطت انت بعد موت كارمايكل ، انه الان بعيد عن الشبهات والافضل ان يظل كذلك ..
– كنت أود أن أعرف من الذي قتل كارمايكل ، هل قتله شخص تبعه الى الفندق ؟

– كلا ، فذلك مستحيل .
– مستحيل ؟
– انه جاء عن طريق النهر ، ولم يكن هناك من يتعقبه ، نحن نعلم ذلك لأن رجالنا كانوا يرقبون النهر .

– هل قتله إذن شخص كان موجوداً بالفندق ؟
– أكاد أجزم بذلك ، وبالتحديد فان القاتل كان يقيم في هذا الجناح بالذات ، وقد كنت أراقب السلم بنفسي ولم أرَ أحداً يأتي عن طريقه .

وفكر داكين لحظة ثم استطرد قائلاً :

– وذلك يسهل عملية حصر المشتبه فيهم .. إذ لم يكن في هذا الجناح سواك أنت ومسز كارديو تريندش وتيو وشقيقتاه ، وخادمان عجوزان يعملان في الفندق منذ عدة أعوام، ورجل يدعى هاريسون من موظفي شركة البترول

في (كركوك) ، ويخيل الى انه رجل شريف ثم ممرضة بالمستشفى الاسرائيلي. ولكن لا يحتمل أن يقول القاتل واحداً من هؤلاء .

— لماذا ؟

— لأن كارمايكل كان شديد الحذر وكان يعلم انه وصل الى اخطر مرحلة في مهمته ، ثم انه كان يتمتع بما يشبه ان يكون حاسة سادسة تنبهه الى الخطر

— إذن هل قتله رجل الشرطة ؟

— انهما حضرا فيما بعد ، جاءا مر الشارع ، ولا بـد انهما تلقيا اشارة من شخص ما ، ولكنهما ليسا القاتلين ، القاتل أما شخص كان كارمايكل يعرفه ويثق به ، أو انسان نكره تافه لا يؤبه به .

ليتني أعرف فقط اي الافتراضين أصح !!

* * *

— ٢ —

استطاع ادوارد بطريقة ما لم تعرفها فكتوريا أن يجد لها عملاً في (غصن الزيتون) بمرتب ضئيـل ، فكانت تقضي كل وقتهـا من غرفة مظلمة مضاءة بالكهرباء بصفة مستمرة حيث تكتب مختلف الرسائل والنشرات ذات الصلة بأعمال المعهد على آلة كاتبة رديئة

لقد قال لها ادوار انه يرتاب في نشاط المعهد ، وأيد داكين هـذا الرأي ، وحضها على أن تحاول معرفة ما إذا كان هـذا الرأي يقوم على أساس ، وكانت تتمنى أن تجد شيئاً إلا انه لم يكن هناك شيء يمكنها أن تجده

كانت رسالة المعهد هي دعم السلام بين الشعوب ، فكانت تعقد فيه الاجتماعات وتلقى المحاضرات وتوزيع الشطائر وعصير البرتقال ، ولكن لم تكن هناك أسرار أو مؤامرات

وكانت فكتوريا قد غادرت فندق تيو وأقامت في أحد البنسيونات على الضفة اليسرى للنهر ، مع بعض فتيات من جنسيات مختلفة بينهن كاترين

وقد أحست فكتوريا بأن كاترين ترمقها بنظرات تنم عن السخط والكراهية ، ولكنها لم تعلم هل ذلك لأنها ترتاب في أمرها أو لأنها تغار منها.

وبعد طول تفكير رجحت فكتوريا الافتراض الاخير ، فقد كان معروفاً انها تدين بوظيفتها لأدوارد ولم تكن كاترين هي الوحيدة التي اكلت الغيرة قلبها فان جميع فتيات المعهد كن مولعات بادوارد ، وكان ادوارد يعاملهن على قدم المساواة، فلا يؤثر أحداهن على الأخرى غير أن صلته بفكتوريا أمام الاخريات كانت تتسم بمزيد من التحفظ .

ولكن على الرغم من اقتناع فكتوريا بأن نشاط (غصن الزيتون) فوق الشبهات ، فان سلوك مؤسس المعهد كان يثير في نفسها الريب والمخاوف . فقد حدث اكثر من مرة انها لاحظت انه يرمقها خلسة بنظرات فاحصة ، وودت لو انها تعرف ماذا يظن العجوز بها .. وهل يرتاب في الاسباب التي حملتها على العمل في المعهد ..

كانت تعليمات داكين محددة ، وقد اتفق معها على طريقة الاتصال به .. فيما كانت لديها معلومات تود الافضاء بها اليه . فأعطاها منديلاً وردي اللون ، وطلب اليها إذا ارادت مقابلته أن تتنزه على ضفة النهر كما اعتادت أن تفعل كل مساء، الى ان تجد سلماً يؤدي الى المكان الذي ترابط فيه قوارب النزهة والصيد فتضع قطعة من المنديل في مسمار مثبت في جدار السلم ..

وقد انتهزت فكتوريا فرصة سفر ادوارد الى إيران ، فاتصلت بداكين بالطريقة المتفق عليها .. لا لشيء إلا لتصارحه بأنها لم تقع على جديد ، وان حياتها في المعهد مملة الى اقصى حد .

فسألها داكين :

ـ والدكتور راتبون ؟ هل هو رجل امين ؟

ولم تدر فكتوريا بماذا تجيب

فقال داكين :

ـ الواقع ان الدكتور راتبون هو الشخص الوحيد الذي يثير قلقي ، لأنه رجل ذو مركز مرموق ، فاذا افترضنا ان هناك مؤامرة لاغتيال احدى الشخصيات الهامة التي ستشترك في مؤتمر بغداد ، فان أحداً من الطلاب ، او شباب الثوار ستتاح له فرصة للاقتراب من الزعماء الكبار وأية محاولة لالقاء قنبلة سوف تبوء بالفشل ، لأن رجال الشرطة سيطوقون الشوارع الرئيسية . وسيحيطون الزعماء المنتظر قدومهم الى بغداد بحراسة مشددة ، أما راتبون فانه في ذاته مشكلة . لأنه شخصية معروفة ومحترمة ، ويستطيع إذا شاء أن يلبي الدعوات التي ترسل اليه لحضور حفلات الاستقبال التي ستقام تكريماً للزعماء وبذلك تتاح له كل الفرص الممكنة . ولهذا أريد أن أعرف حقيقة موقفه ..

وفي اليوم التالي ، عاد ادوارد من رحلته ، وقدم الى فكتوريا بعض الاوراق لكتابتها على الالة الكاتبة وقال :

ـ الدكتور راتبون يرجوك أن تكتبي هذه الاوراق فوراً ، مع الاهتمام بالصفحة الثانية بصفة خاصة لأنها حافلة بأسماء عربية معقدة .

فتنهدت فكتوريا ، وشرعت في استخدام الآلة الكاتبة .

كان خط الدكتور راتبون واضحاً ، وسرعان ما فرغت من نسخ الصفحة الأولى وعندما بدأت في كتابة الصفحة الثانية ، أدركت لماذا حرص ادوارد على لفت نظرها الى هذه الصفحة خاصة .. فقد وجدت رقعة صغيرة ملصقة بالصفحة الثانية ومكتوبة بخط إدوارد .

قرأت فيها هذه الكلمات :

« اذهبي للنزهة على ضفة النهر دجلة في الساعة الحادية عشر صباحاً ، وسأكون في انتظارك بالقرب من بيت الملك علي » .

وفرغت فكتوريا من كتابة الاوراق . وحملتها الى الدكتور راتبون ،

فتصفحها هذا ببطء . وكانت فكتوريا قد همت بالإنصراف فبادرها بقوله :
- هل انت سعيدة هنا يا فكتوريا ؟
- نعم يا دكتور .. شكراً لك .
فنظر اليها بحدة ، واضطرت ان تطرق برأسها .

قال :
- أخشى أن يكون الاجر الذي تتقاضينه ضئيلاً ..
- لا أهمية لذلك ، أنا أحب عملي ..
- أحقاً ؟
- نعم .. انني أشعر بأنني اؤدي عملاً يستحق الجهد الذي يبذل فيه ..
فقال دون أن يحول عينيه عن وجهها :
- وهل يوفر لك هذا الاجر مطالب الحياة :
- نعم .. انني أقيم في غرفة لا تكلفني كثيراً ، لدى اسرة أرمنية .

الواقع . ان بغداد تفتقر الى كاتبات الاختزال ، وأعتقد انك تستطيعين الحصول بسهولة على وظيفة أفضل بأجر أكبر .
- ولكني لا أود استبدال وظيفتي هنا بأخرى .
- ربما كان من الحكمة أن تفعلي .
فهتفت بصوت مرتجف :
- من الحكمة ؟
- هذا ما قلته ، إنها مجرد نصيحة بسيطة ، مجرد رأي ..
وكان في صوته ما يشبه التهديد ، فلم تحاول الفتاة اخفاء دهشتها ..

قالت :
- الواقع .. انني لا افهم يا دكتور !!
- ان من الحكمة ألا يقحم الانسان نفسه في أمور لا يفهمها ..
وكان التهديد في هذه المرة واضحاً :

واستطرد الرجل قائلاً :

ـ لماذا جئت للعمل هنا ؟ هل جئت من أجل ادوارد ؟

ـ كلا طبعاً ..

فهز الشيخ رأسه وقال :

ـ أن ادوارد لا يزال في اول السلم ، ولا بد أن تمر سنوات عديدة قبل أن يتمكن من عمر شيء من أجلك .. ولو كنت مكانك لاقلعت عن التفكير فيه ، ولهذا قلت لك ان في استطاعتك أن تجدي عملاً أخر في بغداد بأجر أفضل عملاً يؤمن مستقبلك .. مع أناس في مستواك ..

فقالت بحدة :

ـ ولكني أحب العمل في (غصن الزيتون) يا دكتور ..

فهز كتفيه ، وأشاح بوجهه .. وانصرفت فكتوريا وهي في حيرة من أمر هذا الحديث .

ترى هل فعلت شيئاً أثار ريبة الدكتور راثبون ؟

ترى هل أدرك أنها جاسوسة ؟

الفصل السابع عشر

في اليوم التالي . ذهبت فكتوريا للقاء ادوارد في الموعد المتفق عليه ، ووجدته يدخن لفافة تبغ بجوار سيارة سوداء عتيقة ..

وهتف ادوارد حالما رآها :

ــ برافو .. كنت اخشى ان تضلي الطريق .. اصعدي الى السيارة .

فأطاعته مغتبطة وسألت :

- الى أين سنذهب ؟

ــ الى خرائب بابل .. أليس من حقنا أن نلهو قليلا بعيداً عن (غصن الزيتون) .

وتحركت بهما السيارة ..

وحين نطق ادوارد باسم (غصن الزيتون) .. تذكر فكتوريا حديثها مع الدكتور راتبون وكان لا يزال يقلقها ، فرأت من الحكمة أن تفضي به الى ادوارد ، الذي هتف بعد سمع روايتها :

- ولكن هذا خطير جداً يا فكتوريا .. ماذا قال لك بالتحديد ؟

فبذلت فيكتوريا قصارى جهدها لاستعادة الكلمات التي استخدمها راتبون في حديثه ، وصاح ادوارد وعلى وجهه دلائل الانزعاج :

– ألم تفهمي أيتها الصغيرة المسكينة ان هذا الرجـل يضمر لك سوءاً ، كانت كلماته بمثابة تحذير وانذار .. وهذا أمر خطير !! ان هؤلاء الناس لا يقفون في شرورهم عند حد وأنا لا اريد أن اسمع يوماً نبأ العثور على جثتك في نهر (دجلة) .

فأطرقت فكتوريا برأسها ولم تجب .

وبعد رحلة شاقة في طريق وعر استغرقت زهاء ساعتين توقفت بهما السيارة عند خرائب بابل ..

وكانت فكتوريا تتوقع أن ترى أعمدة من الرخام وبقايا اقواس نصر كتلك التي رأتها في صور خرائب بعلبك ، ولكنها لم تجد أمامهـا سوى حوائط من الطوب وأكواماً من الحجارة ..

وبعد أن طافا بالمكان ، انتحيا ركنا تناولا فيه الطعـــام الذي أحضره ادوارد معه . ثم تمددا فوق الرمال طلبا للراحة ، وأغمضت فكتوريا عينيها وراحت تفكر وتتحدث الى نفسها :

– هأنذا بين خرائب (بابل) !! من يصدق ذلك لا شك انني في حلم .. وأنني متى استيقظت وفتحت عيني فسأجد نفسي في لندن .. في مكتب مستر جرينهولتز .. وسأكتشف ان ادوارد لم يكن إلا شخصـــاً من صنع خيالي ..

فتحت عينيها ..

كلا .. انها لا تحلم .. فها هي الشمس المحرقة تصليها ناراً حامية .. انهـا تختلف تماماً عن شمس لندن .

وها هو ادوارد ممدد بجوارها .

ما أجمل شعره الطويل المنسدل فوق عنقه !

ثم أن عنقه جميل أيضاً مثل شعره .. وليس فيه تجاعيد أو بثـور .. أو ندبات .. أو حتى شامة واحدة .. كتلك التي رأتها في عنق السير روبرت حين

جالس على المقعد الذي أمامها في الطائرة .

وفجأة ، أفلتت من فمها آهة عميقة ، فاستدار اليها ادوارد وسأل :

ــ ماذا حدث ؟

ــ تذكرت شيئاً ، عن السير روبرت كروفتين لي .

فحملق نحوها وكأنه يطلب إيضاحاً . فقالت :

ــ كانت له شامة في عنقه .

ــ أحقاً ؟

ــ نعم كان جالساً أمامي في الطائرة ، فرأيت الشامة ..

ــ وأية غرابة في ذلك ؟

ــ أنك لم تفهم يا ادوارد !! عندما رأيت السير روبرت في شرفة فندق (تيو) ، لم يكن في عنقه أثر لتلك الشامة .

ــ وماذا في ذلك ؟

ــ فكر جيداً يا ادوارد . في الطائرة كانت في عنقه شامة ، وفي الفندق. لم يكن هناك أثر للشامة .

ــ ربما أزالها ؟

ــ لو انه أزالها لتركت أثراً .. اصغ اليّ يا إدوارد أن الرجل الذي رأيته في فندق (تيو) لم يكن هو السير روبرت .

فنظر اليها في ذهول وهتف :

ــ لا شك انك فقدت صوابك يا فكتوريا ، ألم تقولي انك رأيته وعرفته في الفندق ؟

ــ عرفت قبعته ومعطفه ، ومظهره .

ــ ولكنهم عرفوه في السفارة .

ــ في السفارة ؟ انه لم يذهب الى السفارة ، وإنما ذهب الى فندق (تيو) ، كان هناك أحد الملحقين في انتظاره في المطار ، أما السفير فكان في لنــدن ..

يضاف الى ذلك أن السير روبرت كان يثير الاسفار .. فلم يره الناس في انجلترا إلا فيما ندر .

– ولكن لماذا قتل ؟

– لماذا ؟ بسبب كارمايكل الذي كان مقرراً أن يلتقي به في بغداد ليعرف منه الحقائق التي اكتشفها في رحلاته ، ولم يكن الرجلان قد تقابلا من قبل وعندما رآه كارمايكل في الفندق لم يعرفه ، ولم يرتب في أمره ، ومن المحقق أن السير روبرت الزائف هو الذي قتل كارمايكل ،هذه حقيقة مؤكدة يا إدوارد.

– أنا واثق من انك تخدعين نفسك يا فكتوريا ، هل نسيت أن السير روبرت قتل فيما بعد ، في القاهرة ؟

– نعم . انه قتل في القاهرة .. هذا مخيف يا ادوارد أستطيع أن أقول انني كنت هناك حين قتل .

– هذا هو الجنون بعينه .

– كلا .. اصغ إليّ يا ادوارد .. انني أذكر الآن ما حدث .. لقد هبطت بنا الطائرة في القاهرة ، فانتظرنا في صالة (الترانزيت) ريثما يتم تموين الطائرة وتستعد للاقلاع .. وكان السير روبرت يجلس على مقربة مني . فجاءت احدى المضيفات وقالت له أنه مطلوب في (المكتب) وأشارت الى غرفة تبعد بضع خطوات ..

وتصادف انني غادرت مكاني بعد لحظات لأبتاع شيئاً من المرطبات .. ومررت بالمكتب الذي اشارت اليه المضيفة .. ووجدت على بابه لافتة كتب عليها (مكتب المراقبة) .. وفي نفس اللحظة فتح الباب وخرج منه السير روبرت ..

أنا واثقة الآن أن هذا الذي خرج من المكتب هو السير روبرت الزائف ، أما السير روبرت الحقيقي ، فان قاتليه كانوا في انتظاره بالمكتب المزعوم ، فلما دخل افقدوه الرشد بطريقة ما ..

واكبر الظن انهم خدروه ، واحتفظوا به ، ثم قتلوه بعد أن عاد السير روبرت الزائف من بغداد ..

ـ قصة طريفة يا فكتوريا ولكن لا يمكن تصديقها .. خاصة وانه ليس لديك دليل على أن ..

ـ الدليل هو الشامة ..

ـ آه ... الشامة .

ـ وهناك دليل آخر ..

ـ ما هو ؟

ـ اللافتة التي على باب المكتب .. لقد اكتشفت فيما بعد ، ونحن في طريقنا الى المكتب ، ان هذه اللافتة قد أزيلت من مكانها ..

وثمة أمر آخر . تلك المضيفة التي استدعيت السير روبرت للذهاب الى مكتب المراقبة المزعوم .. لقد رأيتها مرة أخرى في بغداد .. في معهد .. (غصن الزيتون) عندما ذهبت اليه لأول مرة ، انها وصلت حين كنت اتحدث الى الدكتور راثبون .. وعندما غادرت مكتب الدكتور رأيتها تتحدث مع كاترين . وأحسست وقتئذ بأنني رأيتها من قبل .. الآن تذكرت كل شيء ..

وصمتت لحظة ثم استطردت قائلة :

ـ صدقني يا ادوارد ، ان ما ذكرته لك الآن ليس حلماً ..

ـ فهز الشاب رأسه وقال :

ـ اريدك أن توثقي صلتك بهذه الفتاة .. فاننا عن طريقها نستطيع أن نعرف الكثير .. تملقيها . واعملي على كسب صداقتها . وتظاهري بأنك تشاطرينها اراءها وعقائدها .. ثم حاولي أن تعرفي من هم اصدقاؤها . ومن هم الذين تتردد عليهم في الخارج .

ـ ليس أيسر من ذلك . سأحاول .. ولكن حدثني .. هل أطلع داكين على كل ما ذكرته لك الآن ؟

- طبعاً ، ولكن يحسن أن تنظري يوماً أو يومين . فقد تكتشفين خلال هذه الفترة شيئاً جديداً .

* * *

كانت فكتوريا راضية عن نفسها كل الرضى بعد اكتشافاتها الأخيرة فلم يشق عليها في اليوم التالي ان تلاطف كاترين وتمازحها رغم ما تضمره لها من حقد وكراهية ..

وقد بدأت حديثها مع كاترين بأن سألتها عما إذا كانت تعرف حلاقاً موثوقاً به ، يغسل شعرها ويصففه

ورمقتها كاترين بنظرة فاحصة . ثم قالت

– أرى من شعر رأسك انك كنت خارج المدينة أمس اثناء العاصفة الرملية .

فأجابت فكتوريا :

– الواقع انني استأجرت سيارة ذهبت بها الى خرائب (بابل) ، وعند العودة هبت عاصفة رملية شديدة خيل الي معها انني سأفقد البصر أو سأموت اختناقاً ..

فقالت كاترين :

– انني أصفف شعري عند فتاة أرمنية بارعة ، وأنا على استعداد لأن أذهب بك اليها الليلة إذا شئت .

- لقد كنت دائماً أعجب بشعرك ولطالما تساءلت ترى ماذا تفعلين به لكي يبدو في هذا الجمال ..

كانت تكذب بجرأة ، ولكن كذبها أدخل السرور على نفس كاترين فلم تتمالك من الابتسام ..

وفي المساء ، غادرت الفتاتان المعهد ، واجتازتا بعض الازقة والدروب

وصلتا أخيراً الى باب صالون للحلاقة ..

وكانت الآنسة انكوميان الارمنية صاحبة الصالون تتكلم الانجليزية ولكن ببطء شديد .. فادخلت فكتوريا الى غرفة كل ما فيها نظيف وأنيـــق .. وسكبت على شعرها سائلاً تحول بعد قليل الى فقاعات صابون ..

وبعد أن عالجت خصلات الشعر باصابعها قالت :

– والآن .. ضعي رأسك تحت صنبور الماء ..

فاحنت فكتوريا رأسها تحت الصنبور ، وشعرت بالماء ينهمر على شعرها .

وفجأة ، اشتمت رائحة نفاذه ذكرتها بالمستشفيات ، وفي ذات اللحظـــة أحست بشيء مبلل يوضع فوق انفها فحاولت أن تقاوم وأن تحرك رأسها ، فلم تستطيع .. وخيل اليها أن يداً من حديد تضغط شيئاً على انفها بقوة لاتقاوم

وما هي إلا لحظة حتى غابت عن وعيها ..

الفصل الثامن عشر

عندما أفاقت فكتوريا، كان ذهنها ملبداً بذكريات مضطربة غير واضحة، تذكرت مثلاً انها أحست في وقت ما بأنها القيت في سيارة مع أشخاص كانوا يتناقشون باللغة العربية وانها وضعت بعد ذلك في فراش وسلطت على عينيها أضواء قوية ، ثم كشف بعضهم عن ذراعها وغرز فيها ابرة فغابت عن وعيها مرة أخرى ..

انها الآن واثقة بأنها في تمام وعيها .. ولكن ماذا حدث لها قبل ذلك ؟

حاولت أن تستجمع أفكارها ، وتذكرت خرائب بابل والشمس المحرقة والعاصفة الرملية وكاترين التي رافقتها الى صالون امرأة أرمنية راحت تغسل شعرها بالماء .. ثم تذكرت تلك الرائحة النفاذة ، كانت رائحة (كلوروفورم) بغير شك ، ولكن ماذا حدث لها بعد ذلك ؟

وجدت نفسها ممدة على فراش شديد الصلابة : ورأسها يكاد ينفجر من الصداع .. وخيل اليها أن كل شيء يدور حولها .. وان افضل لها أن تقف عن التفكير وتحاول أن تنام ..

وعندما استيقظت ،أحست بأنها أحسن حالاً ، وكان الوقت نهاراً ،فاجالت البصر حولها ووجدت انها في غرفه صغيرة أرضها من الطين ، وليس بها من

الأثاث سوى الفراش ومائدة عرجاء عليها آنية من الصفيح .

ووقع بصرها في الجدار على نافذة صغيرة فأسرعت اليها ، وأطلت منها ، واكتشفت أن غرفتها تقع في الطابق الثاني من مبنى تحيط به أشجار الكافور والنخيل ..

وتقدمت من الباب ، وعالجته ووجدته مغلقاً ، ومتيناً . فعادت الى الفراش وجلست على حافته .

ترى أين هي الآن ؟

من المحقق انها ليست في بغداد ..

وماذا يراد بها ؟

وهنا تذكرت حديث مستر داكين حين نصح لها بالا تحاول القيام بدور البطلة .. ولم تتمالك من الابتسام .

لا شك انها افضت بكل ما تعلمه وهي تحت تأثير المخدر .

شيء واحد أثلج صدرها .. هو انها لا تزال على قيد الحياة !!

أن كل ما يستطيع أن تفعله الآن .. هو ان تتجلد حتى يـــأتي ادوارد لانقاذها ..

ترى ماذا سيفعل ادوارد حين يكتشف اختفاءها ؟

هل سيذهب الى داكين ؟ أم يؤثر معالجة الأمر بمفرده ؟

وهل سيرتاب في كاترين ؟

وأضناها التفكير دون أن تجد جواباً لواحد من هذه الاسئلة ..

الواقع .. ان كل شيء يتوقف على ادوارد .. انه لطيف ووسيم ولكـــن هل هو ذكي ؟

ان مستر داكين رجل مفرط الذكاء .. ما في ذلك شك ولكن هل سيتحرك للبحث عنها ؟ انها لا تعني شيئاً بالنسبة اليه . مجرد عمليـــة . ضمن الاف العملاء .. جميعهم يجازفون ويتعرضون للاخطار والمهالـــك .. فاذا سقط

أحدهم كان ذلك من سوء حظه .. وكل ما يفعلونه هو أن يزيلوا اسمه من قائمة العملاء ..

كلا . أن داكين لن يحرك ساكناً للبحث عنها وإنقاذها .

ثم انه سبق أن حذرها ، وكذلك حذرها الدكتور راتبون .

وفجأة ، سمعت وقع اقدام تقترب ، وحركة مفتاح في القفل ، ثم فتح الباب ، ودخل رجل عربي يحمل صفحة حافلة بأطباق الطعام، فوضع الصفحة أمامها ، ونظر اليها وهو يبتسم ، وقال لها كلاماً باللغة العربية . لم تفهمه ولكن حركة يده كانت تعني :

– تناولي الطعام ..

ثم غادر الغرفة وأوصد الباب بالمفتاح .

وفحصت فكتوريا الطعام باهتمام ، كان يتألف من الأرز والكرنب والخبز عدا آنية الماء فاقبلت عليه تلتهمه بنهم .

ولما فرغت من تناول طعامها ، أحست بالراحة ، وبدأت تفكر من جديد.

لقد خدروها واختطفوها .. ولكن متى حدث ذلك ؟

كان ذلك في احدى الأمسيات .. منذ يومين أو ثلاثة أيام .. أو ربما أكثر ..

ومرت الساعات بطيئة مملة .. ثم فتح الباب مرة اخرى ودخل حارسها حاملا صحفة الطعام ، وتبعته امرأتان محتجبتان وقفتا بعتبة الباب .. وراحتا تنظران اليها في فضول وتتبادلان الملاحظات وتتضاحكان ..

ولكن الحارس لم يلبث أن أومأ اليهما بالانصراف ، ثم وضع الصحفة أمام فكتوريا ، وحمل الصفحة الأولى .. ومضى الى الباب .

وقبل أن ينصرف ، استدار الى فكتوريا وقال :

– باكر .. باكر .. باكر .

وكانت فكتوريا تعرف هذه الكلمة .. انها تعني غداً .

إذن فسيحدث شيء غداً .. ولكن ماذا ؟

هناك احتمالان لا ثالث لهما .. أما انها ستسترد حريتها غداً .. أو انها ستفقد حياتها .. وتمنت متى جاء الغد أن تكون في مكان آخر .

ولكن هل يمكن ذلك ؟

ولأول مرة ، بدأت تفكر من جديد في الفرار .. واقتربت من الباب .

لم يكن القفل من النوع الذي يمكن فتحه بدبوس الشعر .

أما النافذة فكان يسهل الفرار منها ، بشرط ألا تحدث ضوضاء .. ولكن العقبة الوحيدة هي أن الوثوب من ارتفاع خمسة أمتار قد يؤدي الى كسر ساقيها ..

لقد جرت العادة في القصص ان تصنع البطلة حبلاً من أغطية الفراش تتدلى به من النافذة ، ولكن من سوء الحظ أن فراش فكتوريا لم يكن به أغطية .

ولكنها لم تفقد شجاعتها ، وصممت على الفرار ، كانت تعلم ان حراسها أناس بسطاء لا يخطر لهم ببال ان امرأة سجينة في غرفة مغلقة يمكن ان تجد طريقة للفرار . أما اعداؤها الخطيرون الذين اختطفوها ، فانهم ليسوا في ذلك البيت ، ولكنهم سيأتون غداً .

قالت تحدث نفسها :

— والنتيجة .. هي ان الفرار يجب ان يتم اليوم .. فلنبدأ الآن بتناول طعام العشاء .

وكان الطعام يتألف من الأرز واللحم . والبرتقال ، فالتهمت ذلك كله التهاماً .. وعندما أرادت أن تشرب جرعة من الماء ، ارتطمت يدها بالآنية فانقلبت وسال بعض ما بها على المائدة وسقط على الأرض ولما كانت الأرض من الطين فقد أحدث فيها الماء حفرة صغيرة ..

وهنا واتتها الفكرة ..

قالت لنفسها .

ــ ان كل شيء يتوقف على المفتاح ، فاذا كان المفتاح في القفل امكن عمل شيء ..

وكان الليل قد ارخى سدوله فنظرت من ثقب القفل ، ووجدت المفتاح . ولكن لا بد لها من شيء صلب تدفع به المفتاح ليسقط في الجانب الاخر.

وكان بها قلم رصاص يصلح لهذه المهمة .

ولكن من أين لها ذلك الجسم الصلب ، لقد اخذوا حقيبتها .

ومن حسن حظها ان وقع بصرها في تلك اللحظة على حذائها فخلعته وانتزعت منه قطعة الجلد التي تغطي نعله من الداخل ، وبرمتها حتى استدارت كالقلم . ثم وضعتها في ثقب القفل وراحت تعالج المفتاح .. ومرت دقيقة أو دقيقتان قبل أن تتمكن من دفع المفتاح .. وأسقاطه في الجانب الآخر من الباب ..

ولم يحدث سقوط المفتاح صوتاً يمكن ملاحظته .. فقد سقط على أرض من الطين .

قالت لنفسها وقلبها يركض بين ضلوعها :

ــ يجب ان اعمل بسرعة قبل ان يسود الظلام فلا أرى شيئاً ..

وتناولت الانية .. وسكبت بعض الماء عند عتبة الباب ، واستعانت بالملعقة في حفر الأرض تحت الباب ، حتى احدثت فجوة دست فيها ذراعيها ، والتقطت المفتاح ..

وكفت عن الحركة لحظة لتلتقط انفاسها ، ثم وضعت المفتاح في القفل بهدوء ، وادارته . ففتح الباب ..

وأصاخت السمع ، ولكنها لم تسمع سوى نباح الكلاب .. وغادرت سجنها لتجد نفسها في غرفة أخرى كان بابها مفتوحاً .. فأطلت من الباب ورأت درج السلم ..

يجب الآن أن تخلد الى الهدوء حتى يهبط الظلام .. ويستغرق الجميع في النوم ..

وحانت منها التفاتة فرأت في أحد اركان الغرفة عباءة سوداء قديمة .. فتناولتها .. وتدثرت بها لتخفي ثيابها وشخصيتها .

وانتظرت طويلاً حتى انتصف الليل ، فتسللت الى الخارج وأوصدت باب غرفتها وتركت المفتاح في القفل ، وهبطت السلم ببطء وبغير جلبة .. ومرت بغرفة ينبعث منها غطيط لعله غطيط الحارس وما هي إلا لحظة حتى كانت تعبر الحديقة وتنطلق بعيداً عن سجنها .

وأطلقت ساقيها للريح في طريق وعر لا تعرف الى اين يؤدي .

كان كل همها أن تبتعد عن القرية وعن سجانيها .

وبعد أن تقطعت انفاسها ، وأحست بأنها أصبحت في مأمن من المطاردة، بدأت تتمهل في سيرها ، وتفكر فيما ينبغي عليها أن تفعله .

وبزغ الفجر أخيراً . فارتفعت تلا صادفها ، ووقفت على قمته وأجالت البصر حولها .. وراعها منظر الصحراء في الشفق ، وجمال الكون في ضوء النهار المنبثق .. وأحست بالخوف والرهبة من السكون والفراغ اللذين يحيطان بها وهمت في لحظة ما بأن تعود أدراجها لعلها تلتقي بانسان .. أي انسان !! ولكنها سرعان ما تمالكت نفسها واستردت رباطة جأشها .. حينما فكرت ملياً في أمرها .. ادركت انها لم تنج تماماً من اعدائها .. وان المسافة التي قطعتها سيراً على قدميها في الظلام، سيستطيعون هم في وضح النهار أن يقطعوها بالسيارة في دقائق ..

وكان التعب قد برح بها . فالتفت جيداً بالعباءة وأرختها على وجهها لكن تبدو كالبدويات وجلست على قمة التل طلبا للراحة ولكي ترقب الطريق .. حتى إذا رأت سيارة مقبلة سارعت الى اتخاذ الاجراءات التي تناسب الموقف.

وغلبها التعب فاستغرقت في النوم وعندما استيقظت كانت الشمس تسطع

في كبد السماء ..

وشعرت بالظمأ فبللت شفتيها الجافتين بلسانها . وعندئذ طرق اذنيها صوت محرك سيارة ، فنظرت حولها في كل اتجاه .. ورأت السيارة من بعيد نقطة سوداء في بحر من الرمال .

ولم تكن السيارة قادمة من ناحية القرية ، ولكن أكبر الظن أنها كانت تقصد اليها ..

واختفت السيارة وراء نشز من الأرض . ثم عادت الى الظهور . واقتربت من التل الذي تقف فكتوريا على قمته فتبينت هذه أن سائق السيارة رجل عربي وأن شخصاً آخر يجلس بجواره ويبدو انه أوروبي .

وترددت فكتوريا بين أن تسارع الى السيارة فتحتمي براكبيها أو أن تتوارى خوفاً من ان يكونا من أعدائها .

وكانت السيارة تتقدم في ممر مطروق .. ولكنها لم تلبث أن غيرت اتجاهها فجأة ، فخرجت من الممر وانحرفت نحو التل ، حيث كانت فكتوريا .

ولا شك أن الرجلين أبصرا بها ..

وبلا تردد ، انبطحت على الأرض وحبست أنفاسها وبعد لحظة ، توقف محرك السيارة ، فسمعت الفتاة كلاماً باللغة العربية .. ثم ساد الصمت ..

وجازفت فكتوريا ، ورفعت رأسها بحذر . فرأت الرجل الأوروبي يصعد التل ويتوقف بين الفينة والفينة لالتقاط شيء ..

وكان من الواضح انه لا يعلم بوجودها ، ولا يهتم بأمرها وكان واضحاً كذلك انه انجليزي فتنفست الصعداء .. ونهضت واقفة .. وأسرعت الى مقابلته وهي تقول :

– ليتك تعلم كم أنا سعيدة بقدومك .

فرفع الرجل رأسه في دهشة وهتف :

– ماذا تصنعين هنا بحق الشيطان ؟ ولكن . هل أنت انجليزية ؟

فانفجرت ضاحكة وقالت وهي تتخلص من عباءتها :

نعم ، فهل تستطيع الذهاب بي الى بغداد ؟

ـ أنا قادم منها .. ولكن ماذا تفعلين هنا في قلب الصحراء ؟

ـ لقد خدرت واختطفت ، وعندما أفقت ، وجدت سجينـة في قرية هناك ..

وأشارت بأصبعها نحو القرية . فقال الشاب :

ـ في قرية (مندلي) ؟

ـ ربما كان هذا اسمها .. انني فررت منها تحت جنح الظلام وقضيت الليل كله هائمة على وجهي في الصحراء . وتواريت عندما رأيت السيارة خوفـاً من أن تكون من الأعداء .

وأصغي اليها الرجل في هدوء .

كان طويل القامة أشقر الشعر ، لا تتجاوز سنه الخامسة والثلاثين .

ونظر اليها من قمة رأسها الى أخمص قدميها ، ثم قلب شفته ، وبدا عليـه كأنه لا يصدق كلمة واحدة مما سمع .. ولاحظت فكتوريا ذلك وصاحت في غضب :

ـ تلك هي الحقيقة !!

ـ لكنها حقيقة أغرب من الخيال ..

فاسقط في يد الفتاة .

لطالما كذبت فصدقها الناس،أما الآن وهي لا تذكر إلا الحقيقة فان أحداً لا يريد أن يصدقها قالت .

ـ الشيء المؤكد .. هو انني سأموت ظمأ إذا لم تسعفني بجرعـة ماء .. سأموت ظمأ كذلك إذا أنت تركتني هنا .

فقال الغريب في هدوء :

ليس من المألوف أن تهيم انجليزية على وجهها في الصحراء . أن شفتيـك

جافتان فعلا ..

ثم نادى سائق السيارة بقوله :

– يا عبدالله .

– نعم يا سيدي .

واقترب السائق من سيده ، فأصدر اليه هذا أمراً باللغة العربية ، وأسرع السائق الى السيارة وعاد بزجاجة ماء وكوب . وشربت فكتوريا حتى ارتوت وقالت : أشعر الان بأنني أحسن حالاً .

ورأى الانجليزي ان الوقت قد حان ليقدم نفسه فقال :

– أنا أدعى ريتشارد بيكر .

– وأنا فكتوريا جونز ..

وأرادت أن تثير اهتمام محدثها فاستطردت قائلة :

– فكتوريا بونسفوت جونز .. وقد جئت الى بغداد للحاق بعمي الدكتور بونسفوت جونز . رئيس بعثة الاثار .

فهتف الشاب وهو ينظر اليها في دهشة :

– يا لها من مصادفة عجيبة !! أنا أيضاً في طريقي لمقابلته ، انه في مكان يبعد عن هنا نحو خمسة عشر ميلا .

فانهارت فكتوريا ولم تقو على الكلام . وتبعته الى السيارة دون مناقشة .

قال لها بعد أن جلست في المقعد الخلفي :

– أعتقد انك تخصصت في علم الاجناس البشرية لقد قيل لي انك ستأتين. ولكني لم أظن انك ستأتين بهذه السرعة .

وأخرج من جيبه قطعاً من الخزف التقطها من التل وقال :

– أنه تل عجيب مليء بآثار الاقدمين .. ولكن كل ما به من بقايا الاواني الخزفية يرجع عهده الى الأشوريين .

وابتسم واستطرد قائلا :

– يسرني انك على الرغم من متاعبك ، قد ساقتك هوايتك للاثار القديمة

الى هذا التل .

ولكن فكتوريا لزمت الصمت ولم تجب .

كانت تفكر في موقفها ، لا شك أن امرهـا سيفتضح حالما تصل الى مقر البعثة . .

وراودتها فكرة الاعتراف بالحقيقة فوراً ، ولكنها خشيت أن يتركهـا ريتشارد بيكر في الصحراء ، وأثرت أن تعترف للدكتور بونسفوت شخصياً رغم انها لم يسبق لها أن رأته .. أما ريتشارد بيكر هـذا فانه لن يصدقهـا حتى ولو قالت الحقيقة .

وكان بيكر قد جلس بجوار السائق فتحول اليها وقال :

— اطمئني .. فلن أعود بك الى (مندلي) .

انحرفت السيارة عن الممر المطروق ، وبدأت تشق طريقها في الصحراء . . وكان بيكر يصدر تعليماته للسائق بالاتجاه يميناً أو يساراً . مسترشداً في ذلـك بآثار لاتـكاد ترى لعجلات سيارة سلكت الطريق من قبل .

ومرت السيارة بعربيين يحمل أحدهمامائدة صغيرة، ويحمل الآخر صندوقاً متوسط الحجم فاستوقفهما بيكر ، واغتبط الرجلان بذلك .. وهرولا اليـه ، وتقبلا شاكرين لفافات التبغ التي قدمها اليهما .

والتفت بيكر الى فكتوريا وسألها :

— هل تحبين السينما ؟

— طبعاً . .

— غادري السيارة إذن وستشهدين السينما .

فأطاعت وهي مشدوهة ، بينما وضع العربي المائدة على الرمال ، ووضـع زميله الصندوق في ركن المائدة . وأشار بيكر الى فكتوريا فجلست على المائدة أمام الصندوق ... ونظرت من خلال عدسة بجدار الصندوق .

وشرع أحد الرجلين في ادارة (مانيفيلا) متصـــلة بالصندوق بينما راح

الآخر يتكلم بعبارات مبهمة ..

فقالت فكتوريا تحدث بيكر ·

– ماذا يقول هذا الرجل ؟

فأجاب بيكر :

– انه يشرح الصور باللغة العربية ، وسأقوم بالترجمة الفورية .

وبدأ الترجمة ، فقال :

– تعال وانظر عجائب الدنيا منذ بدء الخليقة حتى وقتنا هذا ..

ورأت فكتوريا من خلال العدسة صورة مرسومة بطريقة بدائية ، تمثل الزنوج وهم يعملون في حقول القطن .

وقال بيكر يترجم كلمات العربي :

– الحياة في امريكا .

وتغيرت الصورة :

– زوجة شاه العالم الغربي تصفف شعرها .

وتعاقبت الصور ، برج ايفل .. البرنس البرت ، شواطىء النرويج .. الانزلاق على الجليد في سويسرا .. وقال بيكر يترجم كلام العربي :

– قد عرضنا عليك أعجب ما في الدنيا .. ونرجو أن يكون ما شاهدته قد حاز رضاك .

ونهضت فكتوريا وهي تقول :

– هذا رائع حقاً .

ومنح بيكر العربيين بعض النقود وتبادل معهما حديثاً طويلاً باللغة العربية ، ثم انصرف الرجلان فقالت فكتوريا :

– الى اين يقصدان ؟

فأجاب بيكر :

– الى كل مكان . لقد رأيتهما لأول مرة في شرق الأردن وكانا قادمين من

البحر الميت وهما يقصدان الان الى (كربلاء) وهما عادة يجتازان الممرات غير المطروحة لزيارة القرى النائية البعيدة عن المدينة والحضارة .

ـ لا شك انهما يلتقيان بين وقت، وأخر بمن يصطحبهما معه في سيارته فيوفر عليهما مشقة الطريق .

فأجاب بيكر وهو يضحك :

ـ انك تفكرين بالأسلوب الأوروبي . ان الناس هنا لا يتعجلون الأمور . والوقت بالنسبة اليهم لا يعني شيئاً .

ومضت السيارة في طريقها . وبعد فترة قصيرة قال بيكر :

ـ لقد اقتربنا . .

فنظرت فكتوريا أمامها، ورأت تلا ينهض عند سفحه بيت منخفض مشيد بالطوب . .

ووقفت السيارة أخيراً أمام البيت ، وهرول بعض الخـــدم في جلاليبهم البيضاء لتحية القادمين والترحيب بهم . فتبادل معهم بيكر بعض العبارات ثم قال يحدث فكتوريا :

ـ يخيل اليّ انهم لم يتوقعوا قدومك بهذه السرعة . ولكن لا أهميــــة لذلك .. انهم سيعدون لك فراشاً وماء ساخناً للاغتسال وفي استطاعتـك أن تنعمي ببعض الراحة ريثما يحضر الدكتور بونسفوت جونز . انه الان في التل وسألحق به .. وسيعني بك ابراهيم .

وتقدم المدعو ابراهيم وعلى شفتيه ابتسامة عريضة واقتادها الى داخـل البيت ، فمرت بقاعة فسيحة بها بعض الموائد القديمة .. ثم بدهليز طويـل ينتهي بباب يؤدي الى فناء صغير وفي الجانب الاخر من الفناء غرفة صغيرة ينفذ اليها النور من كوة في الجدار .

وأجالت فكتوريا البصر في جوانب الغرفة ورأت فراشاً ودولاباً سيىء الصنع ومائدة ومقعداً وآنية ماء .

وبعد قليل حول اليها ابراهيم وهو يبتسم وعاء مليئاً بالماء الدافيء .. ومرآة صغيرة ثبتها بمسمار في الجدار .

– وأحست فكتوريا بالارتياح إذ سيتاح لهـــا ان تغسل وتتزين وتصفف شعرها ..

ونظرت في المرآة . فذهلت .

لم تعرف نفسها ..

كانت قسمات وجهها على حالها لم تتغير .. أما شعرها فقد أصبح لونه ذهبياً باهتاً ..

* * *

الفصل التاسع عشر

- ١ -

ذهب بيكر للقاء الدكتور بونفسكوت جونز فوجد العالم الأثري الكبير يعمل بنفسه في خندق بالحفائر وبيده معول يدق به أحد الجدران في حرص وحذر شديدين . ولم يدهش الرجل رأى مساعدة الشباب وقال ببساطة :

– أهذا أنت يا فتى ؟ لا أعلم لماذا كنت اعتقد انك لن تعود قبل يوم الثلاثاء ..

– هل أنت واثق ؟

ولم ينتظر العالم الأثري الشيخ الاجابة ومضى يقول :

– اقترب يا فتى .. لأنني أريد أن أعرف رأيك في هذا .. لقد بدأ الجدار يظهر رغم اننا لم نحفر أكثر من مترين ، ويخيل الي انني أرى عليه اثار نقوش تعال وانظر ..

فوثب بيكر الى الخندق .. وبدأ بين الرجلين حوار فني بحت استغرق زهاء الربع ساعة وأخيراً قال بيكر :

– الواقع انني عدت ومعي أحد الفتيات .

– احدى الفتيات ؟ ومن هي ؟

– تقول انها ابنة أخيك .

– ابنة أخي ؟

وحاول الرجل أن ينسى حفرياته ويركز تفكيره ثم قال :

– لا أذكر ان لي ابنة أخ ..

قال ذلك بلهجة تدل على انه غير واثق .

ربما كانت له ابنة أخ غابت عن ذاكرته ..

قال بيكر :

– يبدو مما فهمته انه جاءت لتعمل معنا .

فانبسطت أسارير العالم الأثري وهتف :

– آه . تذكرت .. لا بد انها فيرونيكا .

– يخيل الي انها قالت ان اسمها فكتوريا ..

– نعم .. نعم .. فكتوريا .. لقد كتب لي ايمرسون بشأنها .. ايمرسون ، الاستاذ بجامعة كمبردج .. يبدو انها فتاة موهوبة تخصصت في علم الاجناس البشرية .. ولست أدري في الواقع معنى اهتمام انسان بعلم كهذا .

– ولكن ألم تكن في انتظار فتاة تخصصت في هذا العلم ؟

– نعم . ولكني لم أكن اتوقع قدومها بهذه السرعة . فليس لدينا الآن شيء في دائرة تخصصها يمكننا أن نقدمه اليها .. فهمت من رسالة ايمرسون أنها لن تحضر قبل اسبوعين .. ولكن يبدو انني قرأت الرسالة بسرعة .. ثم أضعتها فلم ألم بمضمونها تماماً . وعلى كل حال يمكننا الافادة من الفتاة في تسجيل قطع الخزف التي عثرنا عليها وهي كثيرة ومن عصور مختلفة .

– هذه الفتاة .. أليست على شيء من غرابة الاطوار ؟

– غرابة الأطوار ؟ ماذا تعني ؟

– ألم تصب مثلاً بمرض عصبي .. أو بشيء من هذا القبيل ؟

– قال لي ايمرسون في رسالته انها ارهقت نفسها في الاستعداد للامتحان

النهائي   لكنه لم يذكر شيئاً عن أصابتها بمرض ما .. لماذا تسأل ؟

ـ لأنني التقطها من مكان مهجور في الصحراء .. كانت هناك وحدهـا .. فوق ذلك التل الذي توقفت انت عنده في العام الماضي . وقد قصت عليه قصة عجيبة . قالت انها ذهبت الى صالون للحلاقة فخدروها هناك ونقلوها الى قرية (مندالي) وحبسوها في منزل هناك ولكنهـا استطاعت الفرار في منتصف الليل .. الواقع انني لم اسمع في حياتي قصة أبعد عن التصديق كهذه القصة التي روتها لي .

فهز الدكتور بونسفورت رأسه موافقاً وقال :

ـ حقاً انها لا تصدق . خاصة وان الأمن يسود كل مكان في هذه البلاد .

ـ وهذا رأيي أيضاً ، لقد كنت واثقاً من أن القصة كلها محض اختلاق ، ولذلك اتساءل عما إذا كانت هذه الفتاة مصابة بمرض عصبي أو نفسي .. وهل هي من طراز الفتيات اللائي يزعمن أن القس طارحهن الحب أو أن الطبيب أعتدى عليهن فلو كانت كذلك لأثارت لنا متاعب نحن في غنى عنها .

فقال بونسفورت بلهجة المتفائل :

ـ اطمئني ، فلسوف تهدأ .. أين هي الآن ؟

ـ في غرفة الضيافة .

ثم استطرد بعد تردد :

ـ لقد جاءت بدون بيجامة ..

ـ أحقاً تقول ؟ لا شك انها تتوقع أن أعيرها بعض ثيابي .. انني لا املك سوى بيجامتين أحداهما مهلهلة يا إلهي !! ما أعجب فتيات هذا الزمن !!

- ٢ -

وجدت فكتوريا الدكتور بونسفورت يختلف تماماً عمـــا تخيلته .. رأت أمامها رجلاً قصير القامة يميل الى البدانة نصف أصلع ولشد ما كانت دهشتهـا حين رأته يبسط لها يديه ويقول :

– طاب يومك يا فيرونيكا .. اعني يا فكتوريا .. انني سعيد برؤيتك .. ومندهش .. فقد كنت أتوقع حضورك الشهر القادم . ولكني سعيد بوجودك معنا على كل حال .. ألا يزال أيمرسون يعاني من ضيق التنفس .

فأجابت فكتوريا بصوت حاولت أن يبدو ثابتاً :

– أنه أحسن حالاً ..

– انه يبالغ في تغطية عنقه . وقد قلت له ذلـــك مراراً ، كل الجامعيين يسرفون في قلقهم على صحتهم ولكن لنتحدث عنك .. قال لي ريتشارد انك فقدت أمتعتك .. فماذا ستفعلين ؟ اننا لن نستطيـع ارسال السيارة الى المدينة قبل ثمانية أيام .

ثم ابتسم وقال :

انني وريتشارد لا نملك شيئاً يستحق الذكر ، كل ما نستطيـع أعارتك اياه هو فرجون (فرشاة للانسان وحذاء وبعض المناديل .)

فابتسمت فكتوريا بدورها وقالت

– اطمئني فسأتصرف ..

– وثمة شيء آخر .. أننا لم نكتشف بعد مقابر تساعـــدك على ممارسة اختصاصك كباحثة في علم الأجناس البشرية .. بيد أن لدينا أعمـــالاً كثيرة يمكن أن تشغل كل وقتك . هل تجيدين التصوير الفوتوغرافي ؟

– نعم ..

– هذا حسن .. من المحقق اننا سنفيد منك كثيراً وبعد الغداء ذهب بها

إبراهيم الى مخزن مقتنيات البعثة ، فأخذت مما فيه من ادوات مـا يمكن أن يفيدها شخصياً ، ثم عادت الى غرفتها وتمددت في فراشها وراحت ترتب افكارها لم يكن هناك شك في انهم يظنونها فتاة أخرى .. تدعى فيرونيكا تعمل باحثة في علم الاجناس البشرية .. وكان الدكتور بونسفورت ينتظر حضورهـا . ولكن ما هو علم الاجناس البشرية ؟ لا بأس .. انهـا سوف تبحث في أحـد القواميس . للتزود بالمعرفة .. ان فيرونيكا هذه لا ينتظر قدومها قبل ثمانيـة أيام .. إذن فهي تستطيع أن تعيش هذه الأيام الثمانية في طمأنينة ..

ان الدكتور بونسفورت جونز رجل طيب القلب ، كثير النسيان ، فليس ثمة خطر منه ..

أما ريتشارد بيكر فانه يختلف عن استاذه ، انها لا تحب عجرفته .. ولا طريقته في الحملقة نحوها كمن يريد أن يتغلغل في اعماقها ويعرف دخيلة نفسها .

أن من حسن الحظ انها عملت وقتاً ما ككاتبة اختزال في معهـد الاثار في لندن ، فعرفت كثيراً من الاصطلاحات الأثرية التي تستطيـع الان استخدامهـا والتستر وراءها .

ان الراحة خلال الايام الثمانية القادمة سوف تساعدها على التقاط انفاسها وتحديد موقفها ..

وفكرت في (غصن الزيتون)

لا شك انهم يتساءلون هناك الان عن مصيرها . أما أعداؤها ، فمن المؤكد أنهم سيظنون انها ضلت طريقها في الصحراء وهلكت جوعاً وظمأ .. ولن يخطر لهم ببال انهـا انضمت الى بعثـة الدكتور بونسفوت في حفائر (التل الأسود .)

ومن المحزن أن يعتقد ادوارد مثل ذلك .. إنه لا يستطيـع عمل شي .. ولكنه إذا علم بطريقة أو بأخرى بأن لكاترين يداً فيما أصابها ، فانـه سوف يظل نهبة القلق ووخز الضمير لأنه الذي ألح عليها في أن توطد صداقتها بهذه

الفتاة .. على انها ما لبثت أن ابتسمت حين تصورت دهشته عندما يرى شعرها الذهبي ..

ولكن لماذا صبغوا شعرها ؟

لا بد ان لذلك سبباً .. ولكن ما هو ؟

***

ولم تلبث فكتوريا خلال الأيام القلائل التالية أن اكتشفت ان الحياة مع بعثة أثرية لا تخلو من الطرافة والاثارة ..

كانت تقضي كل أوقات فراغها في التهام الكتب المحفوظة في مكتبة البعثة، وكانت تقتصد في الكلام ما أمكنها الاقتصاد تجنباً للذلل .

وتأقلمت مع حياتها الجديدة ، كانت تستيقظ من نومها في وقت متأخر ، وتتناول الافطار ثم تذهب الى الحفائر للتصوير . أو ترتيب قطع الاثار وتنسيقها وفقاً للعصور ، وكان أخوف ما تخافه أن يكتشف بونسفوت مقبرة ويطلب اليها فحص محتوياتها من هياكل وجماجم باعتبارها باحثة في علم الاجناس البشرية .. ولكنها قررت إذا حدث ذلك أن تصطنع المرض وتزعم انها مريضة بالكلي ..

ولكنها لم تضطر الى ذلك .. فان الدكتور بونسفوت لم يكتشف سوى جدران قصر قديم أخذت تظهر شيئاً فشيئاً وهو كشف شد اهتمامها بطريقة لم تتوقعها ولاحظ بيكر حماستها فقال لها وهو يبتسم :

لقد كنت متحمساً مثلك عندما اشتركت في أعمال الحفر لأول مرة .

– هل كان ذلك منذ وقت طويل ؟

– منذ نحو خمسة عشر عاماً .

– لا بد انك تعرف هذه البلاد جيداً .

– أعرف هذه البلاد وغيرها .. اعرف العراق وسوريا وإيران .

– ان من يسمعك تتكلم العربية يظن انك من أهل هذه البلاد .. انـه لا ينقصك سوى الثياب لتبدو عربياً .

ولكنه هز رأسه وأجاب :

لا أعتقد أن هناك انجليزياً استطاع أن يقنع الاخرين بأنه عربي .

– هناك الكولونيل لورنس ؟

– ربما ، ولكنه لم يكن مقنعاً ، أنا شخصياً لم اعرف سوى رجل واحد أمكنه أن يتنكر في زي عربي حتى ظن العرب انفسهم انه واحد منهم .. لقد عرفت هذا الرجل وهو الصبي .. انـه ولد في الشرق وكان أبوه قنصلاً لبريطانيا في (كاشقار) . فتعلم اللغات الشرقية بكل لهجاتها التي يجهلها الأوروبيون وأعتقد انه لن ينسى ما تعلم .

واستطرد :

– لقد انقطعت صلتي به بعد أن تخرجنا في جامعة (أيتون) .. كنا نسميه (الفقير) لأنه كان يقضي الساعات الطوال دون أن يحرك ساكناً أو ينطق بكلمة .

– ألم تره قط بعد التخرج ؟

– رأيته مرة واحدة في (البصرة) منذ بضعة ايام وكان ذلك في ظروف غريبة ..

– أحقاً ؟

– لم أعرفه في البداية فقد كان متنكراً في زي عربي ، في يده مسبحة وحول عنقه شملة (كوفية) .. ولم ألق اليه بالا في البداية .. الى إن لاحظت أن حبات المسبحة تسقط الواحدة بعد الأخرى في فترات منتظمة . وبالأسلوب الذي ترسل به البرقيات بطريقة (مورس) وفهمت أن الرسالة موجهة إلي ..

– وكيف علمت ذلك ؟

– كان يكرر اسمي .. أو على الأصح لقبي ولقبه ويستنجد بي .

ثم نهض واقفاً وسار نحو الباب ، وفي نفس اللحظة نهض رجل بدين يبدو كالوكلاء التجاريين ، وأخرج مسدساً من جيبه وصوّبه نحو صديقي. ولكني ضربت ساعده بقوة ، وبذلك نجا كارمايكل .

– كارمايكل ؟

نطقت فكتوريا بهذا الاسم بلهجة غريبة جعلت بيكر يتحول اليها ويحملق في وجهها .

قال :

– نعم .. ذلك اسمه .. هل تعرفينه ؟

وتصورت فكتوريا دهشته حين تقول له :

– نعم .. وقد مات في فراشي ..

ولكنها أجابت :

– نعم . كنت أعرفه ..

– كنت تعرفينه ؟ هل معنى ذلك أنه ..

فأومأت برأسها وأجابت :

– نعم .. انه مات .

– متى ؟

– منذ بضعة أيام .. في بغداد .. في فندق (تيو) ..

واستطردت قائلة بسرعة :

– لم يذع نبأ موته .. ولا أحد يعلم به ..

فساد صمت قصير ، ثم قال بيكر :

– ولكن كيف .. كيف علمت أنت ؟

– لانني اشتركت في الحادث مصادفة .

فنظر اليها طويلا ، وكأنه يطلب مزيداً من التفصيلات ولكنها قالت فجأة :

ـ في الجامعة .. هل كانوا يلقبونك باسم (لوسيفر) ؟

ـ لوسيفر ؟ كلا كانوا يلقبونني باسم (البومة) لأنني كنت استعمل عوينات كبيرة ..

ـ ألا تعرف في (البصرة) شخصاً كان يطلق عليه اسم لوسيفر .

ففكر قليلاً وأجاب :

ـ كلا .. لوسيفر .. ابن الفجر .. الملاك الذي هوى .. لقد قرأت هذا الوصف للوسيفر في أحدى القصائد ..

ـ هل لك في أن تذكر لي بالتفصيل ما حدث في البصرة ؟

ـ لقد ذكرته لك .

ـ أين وقع ذلك الحادث ؟

ـ في قاعة الانتظار بالقنصلية .. كنت قد ذهبت الى هناك لمقابلة كلايتون.

ـ من كان معك في قاعة الانتظار ؟ كارما يكل . وذلك الوكيل التجاري. ومن أيضاً ؟

ـ شخصان لا أعرفهما .. أحدهما يبدو فرنسياً .. والآخر شيخ إيراني .

ـ وكيف هرب كارمايكل ؟

ـ انطلق يعدو في دهليز يؤدي الى مكتب القنصل ثم انحرف يساراً نحو باب يؤدي الى الحديقة .

ـ أعرف موقع ذلك الباب فقد قضيت فترة في القنصلية .. عقب رحيلك مباشرة .

ـ أحقاً تقولين ؟ هذا عجيب .

وظل يتفرس فيها .. ولكنها صمدت لنظراته . وقالت :

ـ هل كان بالقنصلية ضيوف يومئذ ؟

ـ كان هناك شخص يدعى كروسبي ، يعمل في احدى شركات البترول.

وتذكرت فكتوريا الكابتن كروسبي ، وتساءلت . ويمكن أن يكون هو (لوسيفر) ؟

قالت :

– سؤال أخير .. هل يذكرك اسم (لافارج) بشيء ؟

ففكر بيكر طويلا وأجاب :

– كلا . هل هو اسم رجل ام امرأة ؟

– لا اعلم .

وفي المساء ، بعد أن اوت فكتوريا الى فراشها ، طلب بيكر من الدكتور بونسفوت أن يسمح له بالقاء نظرة على الرسالة التي جاءته من ايرسون ، وقال موضحاً :

– أريد أن أعرف بالضبط ماذا قال في رسالته عن هذه الفتاة .

فأجاب العالم الشيخ :

– المشكلة هي انني لا أعرف اين وضعت الرسالة أنا واثق من انني احتفظ بها في مكان ما ، فقد كتبت على ظهرها بعض ملاحظات خاصة بالعمل .. ولكني أذكر تماماً ان ايرسون أطرى فيرونيكا وامتدحها ، وأنا شخصياً أجدها فتاة ظريفة .. لقد فقدت امتعتها ومع ذلك لم تثر أية ضجة .. أية فتاة أخرى كان يمكن أن تطلب باصرار أن نعيدها الى بغداد . أما هي فانها تقبلت خسارتها بروح رياضية .. وهذا جميل منها .. ولكن كيف فقدت امتعتها ؟

– قالت انهم خدروها واختطفوها .. وسجنوها في أحد البيوت .

– آه .. هذا صحيح .. انك ذكرت لي هذه القصة من قبل ..

الفصل العشرون

بعد ظهر اليوم التالي ، سمع الدكتور بونسفوت جونز صوت محرك سيــارة فنظر الى الصحراء ورأى سيارة قادمة من بعيد فصاح في ضيق :

ـ ها قد جاء زائرون جدد .. كأنما ليس لدي ما أفعله سوى استقبال هؤلاء الحمقى ، وشرح آخر اكتشافاتي في الحفائر .

فقال بيكر :

ـ هل نسيت فكتوريا ؟ انما تستطيع ان تحل محلك في هذه المهمة . ولديها من المعلومات ما يؤهلها للقيام بدور الدليل ، اليس كذلك يا فكتوريا ؟

فأجابت الفتاة :

ـ ان معلوماتي قليلة واخشى التورط في خطأ .

فقال بيتر :

ـ انك شديدة التواضع . فالبيانات التي ادليت بها الي صبــاح اليوم عن طريقة بناء الجدار الذي اكتشفنــاه في الحفائر لا تصدر الا عن اثري ضليع .. او عن مهندس متمرس .

فشعرت فكتوريا بالدم يصبغ وجنتيها واجابت :

ـ مهما يكن من امر فسأبذل قصارى جهدي .

والواقع .. انها هي نفسها كانت في دهشة من الجهود التي بذلتهـا خلال الأيام الخمسة التي قضتها مع البعثة حتى استطاعت تصنيف قطع الخزف وتحديد العصر الذي تنتمي اليه كل منها . وتصور نوع الحياة اليومية التي كان يحياهـا الناس منذ ثلاثين قرناً ، واذهلها ان علماء الآثار لا يهتمون بقصور الملوك والمعابد فحسب كما كانت تتصور ،وانما يهتمون كذلك بحياة الشعوب في مختلف العصور.

كانت فكتوريا تفكر في كل ذلك وهي في طريقها مع بيكر لاستقبـال الزائرين اللذين جاءا بالسيارة .

كانا من الفرنسيين الذين يهتمون بالحضارات القديمة وقد جابا انحـاء سوريا والعراق ، فرحب بهما بيكر وقدم اليهما فكتوريا ورافقتهما الفتاة الى الحـفائر ، ورددت ، كالببغاء ، كل ما سمعته من ايضاحات ، وشفعتها باضافـات من صنع خيالها لتضفي عليها شيءمن الإثارة .

وبعد فترة من الوقت ، اعتذر احد الرجلين بمرضه ، ورجاهـا ان تسمح له بالتماس بعض الراحة في البيت ، وكانت قد لاحظت انه ممتقع الوجه ولا يكاد يلقيبالاً الى حديثها .

ولما انصرف ، قال عنه زميله انه يشعر بالالام في معدته وانه اقترح عليه ان يرجيء الزيارة الى يوم آخر ولكنه أصر .

وعندما فرغ الفرنسي من ارتياد الحفائر ، دعاه الدكتور بونسفوت جونز الى تناول الشاي ولكنه اعتذر بأنه وزميله يجب ان يبدأ رحلة العودة قبل الغروب حتى لا يضلا الطريق في الصحراء .

وعلى الأثر ، استقل الفرنسيان سيارتهما وانطلقا بها ..

وبعد تناول الشاي ، ذهب بيكر الى غرفته لكتـابة بعض الرسائل التي اعتزم ان يودعها صندوق البريد في بغداد حين يذهب اليها فياليوم التالي . ولكنه ما كاد يفتح احد ادراج مكتبه حتى ادرك ان هناك من عبث بأوراقه وامتعته . ولم يخامره شك في انالفاعل هو ذلك الفرنسي الذي اصطنع المرض .

بيد انه اكتشف ان شيئاً لم يسرق .. حتى النقود كانت كلها في مكانها .. اذن ؟

وخطر له خاطر مزعج ، فهرول الى القاعة التي اطلق عليها استاذه اسم قاعة (الانتيكات) ، ولكنه وجد (الكنوز) الأثرية لم تمس ، ولم يفقد منها شيء

عاد الى البهو ووجد فكتوريا تقرأ كتاباً فقال لها :

ـ لقد قام بعضهم بتفتيش غرفتي .

ـ من تعني بكلمة (بعضهم) ؟

ـ الم تفعلي انت ذلك ؟

فقالت مستنكرة .

ـ انا ؟ كلا طبعاً . ماذا يحملني على تفتيش غرفتك ؟

ـ اذن لا بد ان يكون الفاعل احد الزائرين الفرنسيين ، وبالتحديد . ذلك الذي اصطنع المرض .

ـ هل سرق شيئاً ؟

ـ كلا ..

ـ اذن لماذا بحق السماء ..

فقاطعها بقوله :

ـ ظننتك تعلمين .

ـ أنا ؟

ـ ان المغامرة التي رويتها لي والاخطار التي احاطت بك...

ـ آه .. اتعني ذلك ؟

وفكرت قليلاً ثم قالت :

ـ ولكن لماذا يفتشون غرفتك ، وانت لا شأن لك بـ .

ـ بماذا ؟

ولكنها لم تتم عبارتها ، واستغرقت في التفكير ولم يلح عليها بيكر بالسؤال

وقنع بأن استفسر منها عن الكتاب الذي تقرأه ،فأجابت :

ـ لا يوجد في مكتبة البعثة من القصص الا القليل انني اقرأ (قصة مدينتين) .

ـ الم يسبق ان قرأتها ؟

ـ كلا .. كنت اظن ان تشارلس ديكنز كاتب ممل . ولكنني وجدت هذه القصة طريفة ومثيرة .

ـ واين نلت منها الآن ؟

واطل من فوق كتفها وقرأ :

« واخذت المرأة التي تشتغل بالتريكو تحصي الرؤوس التي تفصلها المقصلة »

فقالت فكتوريا :

ـ إنها إمرأة مرعبة ..

ـ من ؟ مدام ديفارج ؟ إنها شخصية عجيبة .. وعلى الرغم من انني لا أعرف (التريكو) .. إلا أنني أرتاب في أن أحداً يستطيع تسجيل قائمة أسماء بواسطة الإبرة والتريكو .

ـ أظن أن هذا ممكن .. (غرزه) إلى اليمين وغرزه إلى اليسار و ..

كفت عن الكلام فجأة ، وانبلج في ذهنها خاطر . تذكرت الرجل الذي اقتحم غرفتها وهو جريح .. والشملة الحمراء التي كان يحيط بها عنقه .. والتي وجدتها هي بعد ذلك ودستها بين أمتعتها . ثم نسيتها تماماً ..

كانت الشملة مصنوعة بالتريكو ..

ولم تكن آخر كلمة نطق بها الرجل هي (لافارج) وإنما (ديفارج) ..

لا شك أنه أراد الإشارة إلى ما كانت تفعله هذه المرأة وإلى أنه قد سجل شيئاً في الشملة (الكوفية) ..

وراءها بيكر ساهمة مستغرقة في التفكير فقال لها .

ـ ماذا دهاك ؟

ـ لا شيء . كنت أفكر في أمر .

كانت تفكر في أنها ستعود غداً إلى بغداد ، بعد أيام سعيدة قضتها مع البعثة ونعمت فيها بالراحة والطمأنينة في أعقاب المغامرات الرهيبة التي خاضتها.

شق عليها أن تعود إلى خدمة مستر داكين .. وإلى العمل في غصن الزيتون

كلا .. إنها ستذهب إلى غرفتها ، وتأتي بتلك الشملة وتقدمها إلى مستر داكين . وبذلك تنتهي مهمتها .

ورفعت رأسها ، ونظرت إلى بيكر ، ووجدته يتفرس فيها ..

قال لها فجأة :

ـ حدثيني يا فيكتوريا .. ما اسمك حقاً ؟ انك لست فيرونيكا سافيل التي أوصى بها الدكتور أپرسون ، لقد نصبت لك بضعة فخاخ فسقط فيها دون أي تحفظ .

ـ إنني ذكرت لك اسمي عندما تقابلنا لأول مرة . إسمي فيكتوريا جونز .

ـ هل أنت ابنة اخ الدكتور بونسفوت جونز ؟

ـ كلا . لقد رويت لك ما حدث لي ولكنك لم تصدقني ولذلك زعمت انني ابنة أخ الدكتور بونسفوت جونز حتى أحملك على احترامي والكف عن احترامي والكف عن السخرية مني ومن قصتي أن إسم الدكتور له وزنه واحترامه ولكني لم أكن أتوقع أنك ستأتي بي اليه ..

ـ هل تريدين أن تقولي أن القصة التي سردتها حقيقة ؟

ـ إنها حقيقة ..

ـ وهل ما رويت عن كارمايكل صحيح ؟

ـ لقد رأيت مصرعه وكان ذلك هو بداية القصة كلها .

ـ إذن أسردي عليّ كل شيء بالتفصيل .

ـ لا أعلم إذا كنت أستطيع الوثوق بك !!

– إنك تقلبين الإوضاع . هل نسيت أن هناك أكثر من سبب يحماني على الاعتقاد بأنك ما جئت إلى هنا منتحلة من الأسماء والصفات مـــا ليس لك إلا لاستقاء بعض المعلومات مني ؟

– بل ربما كان ذلك هو ما انت بسبيله الآن..

– هل تعني أن لديك عن كارمايكل معلومات تهمهم ؟

– تهمهم ؟؟ من هم ؟

– أظن أنني يجب أن أقص عليك القصة كلها من البداية فاذا كنت من أعدائي فأنت تعرف كل شيء فعلاً .. وما سأقصه عليك لن يغير شيئاً .

* * *

وسردت عليه القصة بحذافيرها ، ولم تخف عنه شيئاً سوى موضوع الشملة الحمراء ، وما استنتجته بشأنها وسألها بيكر بعد أن فرغت من قصتها :

– وهل تعتقدين ان الدكتور راتبون يلعب دوراً في هذه المؤامرة الرهيبة؟ لا شك إنك لا تجهلين انه عالم كبير ، وشخصية لها وزنها ، وانه يتلقى معونات من شتى أنحاء العالم ..

– إن تنفيذ المؤامرات يتطلب شخصاً مثله .

– أنا شخصياً أعتقد أنه مهرج ..

– ذلك قناع بارع يحجب حقيقته .

– ربما . ولكن من هو (لافارج) الذي سألتني عنه ؟

– لا أعلم .. انه بالنسبة إلي مجرد إسم مثله في ذلك مثل هيلين شيل .

– هيلين شيل ؟ لم أسمع قط شيئاً عنها .

– إنها تلعب دوراً هاماً .. ولكن هذا هو ما أجهله .

– هل لك أن تذكري لي مرة أخرى إسم الرجل الذي أفحمك في هـذه المغامرة ؟

ـ اسمه داكين .. وأعتقد انه يعمل في إحدى شركات البترول ..
ـ هل هو مهدل الثياب ويبدو متبلداً خاملاً لا يصلح ..
ـ نعم .. ولكن لا ينبغي أن تخدع بالظواهر .
فقلب بيكر شفته وهز رأسه وقال :
ـ كأنني أقرأ قصة بوليسية ..
ولكن فكتوريا كانت تفكر في مشكلة أخرى ..
قالت :
ـ ماذا ينبغي أن تقول للدكتور بونسفوت جونز، يجب أن تصارحه بالحقيقة
ـ لن تقول له شيئاً .. ما الفائدة ؟

الفصل الحادي عشر

شعرت فكتوريا بغصة وهي تلقي نظرة أخيرة على التل الأسود قبل أن تنطلق بها السيارة إلى بغداد ..

وبعد نحو ثلاث ساعات ، وصلت السيارة إلى بغداد . وهنـــاك انطلق السائق والطاهي لشراء مـــا تحتاج اليه البعثة من مؤن ، وقصدت فكتوريا وبيكر إلى فندق تيو ..

وبينما كان بيكر يتسلم الرسائل الخاصة به وبأستاذه ، أقبل ماركوس تيو وعلى شفتيه ابتسامة عريضة ، فرحب بفكتوريا ترحيباً حـــاراً ، وعتب عليها أنها لم تحضر إلى الفندق منذ وقت طويل ، وأدركت فكتوريا أنه لا يعلم شيئاً عن اختطافها ، وخلصت من ذلك إلى أن داكين لا بد أن يكون قد نصح ادوارد بعدم إبلاغ البوليس .

وسألت فكتوريا صاحب الفندق عما إذا كان مستر داكـين موجوداً في بغداد ، فأجابها بقوله :

— لقد رأيناه أول أمس . ونحن الآن في انتظار صديقه الكابتن كروسبي الذي سيعود اليوم من (كرمنشاه) .

ـ هل تعرف أين يوجد مكتب مستر داكين ؟
ـ طبعاً . ومن ذا الذي لا يعرف مقر شركة البترول العراقية الإيرانية ؟
ـ حسناً .. سأذهب الآن باحدى سيارات الأجرة لمقابلته ، ولكني أخشى أن يضل السائق الطريق .
ـ اطمئني .. سأتولى بنفسي إرشاد السائق .
واستقلت فكتوريا إحدى سيارات الأجرة ، وقالت تحدث ماركوس :
ـ نسيت أن أقول لك انني بحاجة إلى غرفة في فندقك ..
ـ سأحجز لك أفخم غرفة .. وسأعد لك عشاء شهياً .
ـ وهل أستطيع أن اقترض منك بعض النقود ؟
ـ اليك محفظتي أيتها العزيزة .. خذي منها ما تريدين .



وبعد نحو خمس دقائق .. كانت فكتوريا في مكتب مستر داكين بشركة البترول .. ونهض هذا لاستقبالها .. وهو يقول :
ـ الآنسة جونز ؟ اليس كذلك ؟ أحضر لنا قهوة يا عبدالله ..
وما أن خرج الصبي العربي حتى قال داكين بصوت خافت :
ـ ما كان ينبغي أن تحضري إلى هنا ؟
ـ لم يسعني أن أفعل غير ذلك .. فان لدي ما أريد أن أفضي به اليك قبل أن أقع في ورطة جديدة .
ـ وهل كنت في ورطة ؟ ماذا حدث ؟
ـ ألم يقل لك ادوارد ؟
ـ لم يقل لي أحد شيئاً ..
وعاد الرجل إلى الجلوس أمام مكتبه وهو يقول :
ـ ماذا حدث ؟

ثم أضاف بعد قليل :

– كنت أفضل أن يظل شعرك في لونه الطبيعي .

فصمتت الفتاة ولم تجب ..

ودخل عبدالله فوضع أقداح القهوة وانصرف ، وحينئذ قال داكين :

– في استطاعتك الآن أن تتكلمي فان الجدران سميكة ولن يسمعنا أحد.

وفي بساطة ووضوح ، روت فكتوريا قصة اختطافها وهروبها ، وكيف وجدت الصلة بين (تريكو) مدام ديفارج وشملة كارمايكل ..

وأصغى اليها داكين باهتمام شديد ، وقال وعيناه تتألقان فرحاً :

– هذه أول معلومات ذات قيمة تصل الينا .. ولكن أين توجد الشملة الآن ؟

– بين أمتعتي .

– ألا يعلم بأمرها أحد ؟

– كلا .. لسبب بسيط هو انني كنت نسيتها تماماً ..

– هذا حسن .. وعلى فرض أن بعضهم فتش حقائبك أثناء غيابك فان الشملة القديمة لن تثير اهتمام أحد .. ان أول ما يجب عمله هو ان نسترد حقائبك .. أين تقيمين الآن .

– لقد استأجرت غرفة في فندق تيو ..

– أحسنت صنعاً ..

– هل تريدني أن اعود إلى غصن الزيتون ؟

– هل أنت خائفة ؟

– كلا .. وسأعود إذا طلبت مني ذلك ..

– لا أظن انه من الضروري أو من الحكمة أن تعودي إلى ذلك المعهد ، ويخيل الي أنهم عرفوا حقيقة أمرك .. وإذا ذهبت فلن تظفري بشيء جديد .. ومن يدري فقد تعودين من هناك بشعر أحمر ..

- لا أدري حقاً لماذا صبغوا شعري .. هل لديك أية فكرة؟

- يوجد تعليل واحد .. مؤلم .. هو أنهم أرادوا إخفاء معالم جثتك ..

- إذا كان في نيتهم قتلي .. فلماذا لم يفعلوا ذلك في التو واللحظة ؟

- هذا سؤال على جانب عظيم من الأهمية أيتها العزيزة ، وحبذا لو كان في استطاعتي ان أرد عليه

وساد الصمت لحظة .. ثم قالت فكتوريا فجأة :

- نسيت أن أقول لك شيئاً هاماً .. هل تذكر ما قلته لك يوماً من أن شيئاً في السير روبرت كروفتون لي قد تغير ؟

- نعم ..

- هل كنت تعرف السير روبرت شخصياً ؟

- كلا . لم أقابله إلا هنا في بغداد ..

- إن الرجل الذي قابلته هنا لم يكن السير روبرت ..

وذكرت له ما لديها من معلومات عن السير روبرت ورحلته إلى بغداد ، فهتف داكين قائلا :

- ذلك يوضح كل شيء .. لقد تخلى كارمايكل عن حذره حين قابل السير روبرت في الفندق .. فانتهز هذه الفرصة وفتك به ، ولكن كارميكل استطاع الوصول إلى غرفتك ومعه الشملة التي يمكننا أن نقول أنه حرص عليها حتى آخر لحظة من حياته ..

- هل تعتقد انني اختطفت لكيلا أنهي اليك هذه الحقيقة ؟ ومع ذلك فانني لم أصارح بها احداً سوى إدوارد ..

- أعتقد أنهم رأوا ان الوقت قد حان لتصفيتك لأنك تعرفين عن غصن الزيتون أكثر مما ينبغي .

- لقد حذرني الدكتور راثبون .. أو على الأصح هددني ، لا بد أنهم عرفوا عن يقين حقيقة الدور الذي أقوم به ..

- إن راتبون ليس مغفلاً ..

- الواقع إنني سعيدة بأنني لن أعود إلى غصن الزيتون كل ما أخشاه هو ألا تتاح لي بعد ذلك فرصة للقاء إدوارد

فابتسم داكين وقال :

- إذا لم يذهب محمد إلى الجبل فإن الجبل يأتي إلى محمد .. اكتبي الآن إلى ادوارد .. قولي له انك تقيمين في فندق تيو وأنك تعتمدين عليه في إحضار حقائبك ..

إنني سأذهب بعد قليل لمقابلة الدكتور راتبون بشأن حفلة يزمع إقامتها .. وسيكون في استطاعتي أن اوصل رسالتك إلى إدوارد فلا تعلم كاترين عنها شيئاً ..

أما أنت فعليك أن تعودي الى فندق تيو وأن تنظري هناك .. وإذا ..

وتردد ، فسألته :

- وإذا ماذا ؟

- وإذا وقعت في مأزق فلا تفكري إلا في نفسك ..

سيكون هناك من يتولى حراستك .. ولكن اعداءك أقوياء وأنت تعرفين منهم الكثير ..

الفصل الثاني والعشرون

صففت فكتوريا شعرها الاشقر وصبغت شفتيها وجلست في شرفة فندق تيبو ، لتقوم مرة أخرى بدور جوليت .

وجاء روميو ولمحته فكتوريا ونادته :

– إدوارد !!

فنظر نحو مصدر الصمت ورآها وهتف :

– آه . أنت هنا ؟

ولحق بها في الشرفة وكانت خالية ، ونظر اليها بشيء من الحيرة وقال :

– انبئيني يا فكتوريا . ماذا فعلت بشعرك ؟

فتنهدت في ضيق وأجابت :

– إذا سألني سائل عن لون شعري بعد الآن فلن اتردد في تمزيق وجهه بأظلافي ..

– كنت أفضل لونه الأول فلماذا صبغته ؟

– سل كاترين ..

كاترين ؟ وما صلتها بذلك ..

– ألم تطلب الي أن اوثق صداقتي بها ؟ لقد أطعتك .. وما هي النتيجة..

أكبر الظن انها لم تنبئك بما حدث لي .

– ماذا حدث لك ؟ لقد أقلقني غيابك .

– أحقاً تقول ؟ ألا تعلم أين كنت ؟

– كنت في الموصل طبعاً .. فقد نقلت الى كاترين رسالتك الشفوية التي قلت فيها انك اضطررت الى السفر فجأة الى الموصل .. وأنك سوف توافينني بأنبائك .

– وهل صدقت ذلك ؟

– ظننت انك أمسكت بطرف خيط هام ، ورأيت من الصواب أن تكتمي الأمر عن كاترين .

– ألم يخطر لك ببال أنها قد كذبت ؟ كان يجب عليها أن تنبئك بأنهم خدروني واختطفوني .

– يا إلهي !! لم اتصور مطلقاً ان يحدث أمر كهذا .. ولكن .. ألا ترين من الحكمة ألا نتحدث في هذه الأمور في مثل هذا المكان ؟ أليس من الأصوب أن نصعد الى غرفتك ؟

– على رسلك .. هل أحضرت حقائبي ؟

– نعم .. وقد وضعتها عند موظف الاستقبال في الفندق ..

– أحسنت صنعاً . انني لم استبدل ثيابي منذ اسبوع .

– ولكن .. ماذا حدث لك بالتفصيل يا فكتوريا ؟

– انها قصة طويلة ..

– هل تعلمين ماذا يجب أن نفعل ؟ أن معي سيارة .. وأعرف مكاناً في الضواحي على جانب عظيم من الجمال والروعة في مثل هذا الفصل من السنة ..

– هلم بنا اليه ..

وهرولا الى السيارة كعاشقين ينشدان الخلوة بعيداً عن الانظار . وجلس إدوار أمام عجلة القيادة وانطلق بالسيارة في طريق بعيد يتجه نحو الجنوب .

وبعد نحو نصف ساعة ، انحرف بالسيارة نحو اليمين وأوقفها وسط ما يشبه غابة صغيرة من أشجار اللوز والبرقوق والنخيل ..

كان المكان رائعاً حقاً .. فهتفف فكتوريا وهي تغادر السيارة لتملأ رئتيها بالنسيم النقي .

– كأننا في انجلترا في فصل الربيع ..

وجلسا على العشب تحت مظلة من أشجار الورد وقال إدوارد :

– الآن .. بوسعك أن تسردي لي آخر مغامراتك .

فسردت له قصتها منذ ذهبت الى صالون المرأة الأرمنية الى أن انضمت الى بعثة الدكتور بونسفوت جونز . وكيف لعبت دور فتاة كان الدكتور يترقب وصولها .

وانفجر ادوارد ضاحكاً وصاح :

– الحق أنك فتاة رائعة يا فكتوريا .. ان سرعة خاطرك وخصوبة خيالك تدعوان الى الدهشة .

فابتسمت وقالت :

– أليس كذلك ؟ الواقع انني أفدت كثيراً من الانتساب الى أعمام كالدكتور بونسفوت جونز وأسقف لانجو .

وعندما قالت ذلك تذكرت أمراً وتلاشت الابتسامة عن شفتيها ..

تذكرت سؤالاً همت بالقائه على ادوارد في حديقة القنصلية بالبصرة لولا أن قطعت زوجة القنصل حديثهما .

قالت :

لقد تذكرت سؤالاً كنت أود أن القيه عليك منذ وقت طويل يا ادوارد .. كيف علمت انني اخترعت عما . هو اسقف لانجو ؟

وكان ممسكاً بيدها ، فأحست بأصابعه تضغط يدها بشدة . وسمعته يقول بسرعة :

– أنت ذكرت لي ذلك ..

– فنظرت اليه بحدة .

وحين فكرت في الامر فيما بعد ، أدهشتها أن تؤدي كذبة تافهة الى النتائج الهائلة التي ترتبت على هذه الكذبة التي نطق بها ادوارد في غير تحرز .

لقد أخذه السؤال على غرة منه . وكان تقلص عضلات وجهه دليلا على انه لم يرض كل الرضى عن اجابته .

وبدأت الحقائق تنبلج أمام عيني فكتوريا .. أو لعلها كانت قابعة في ذهنها منذ وقت طويل ولكنها لم ترها إلا في تلك اللحظة ..

لم تكن قد حدثت ادوارد عن أسقف لانجو..والشخصان الوحيدان اللذان سمعا منها اسم هذا الاسقف الخيالي هما مستر هاملتون كليب وزوجته ، ولا يمكن أن يكون أحدهما أو كلاهما قد قابلا ادوارد لا يزال في البصرة .

إذن لا بد انهما ذكرا له قصة الأسقف في لندن .

ومعنى هذا ان ادوارد كان يعلم منذ البداية ان فكتوريا ستذهب الى العراق في رفقة مسز كليب .. تبا لها ما أغباها !! لقد ظنت ان الأمر مجرد مصادفة بينما هو في الواقع مدبر ومرسوم ..

وأدركت فجأة ، ماذا كان يعني كارمايكل حين ذكر اسم لوسيفر ..

لوسيفر .. أجمل الملائكة ..

لوسيفر الذي طرد من الجنة .

لوسيفر . ابن الصباح ، الملاك الذي سقط .

وإذن فان راتبون ليس الزعيم .. ان الزعيم هـــو ادوارد الموظف الصغير الذي يبدو في الظاهر بلا حول ولا قوة .. بينما هو في الواقع كل شيء ..

أما راتبون .، فانه مجرد ستار .

ولعله ليس من الرداءة كما توهمت ، فهو على الأقل قد نصحها بالفرار قبـــل فوات الوقت .

واكتشفت فكتوريا في ذات الوقت، انها لم تحب ادوارد قط، وانما اعجبت به فقط كما تعجب أية فتاة غريرة بأحد نجوم السينما .

لم تستغرق كل هذه التأملات سوى ثوان ، ولم يظهر لها أي أثر على وجه فكتوريا وهي تنظر الى ادوار بأعجاب مصطنع ..

والواقع انها أحست بغريزتها انها في خطر .. وانه لا توجد لنجاتها سوى وسيلة واحدة . فلجأت اليها .

قالت :

– هل تعرف ماذا خطر لي ؟ خطر لي انك الذي دبرت كل شيء لتيسير قدومي الى بغداد .. ألحق انك رجل مدهش يا ادوارد ..

فارتسمت على شفتيه ابتسامة غامضة ولم يجب ..

قالت :

– ولكن كيف استطعت أن تدبر كل ذلك ؟ لا بد انك ذا نفوذ وسلطان لا حدود لها .. ولقد بدأت أرتاب في انك تحبني حقاً ..

– أنت تعلمين انني أحبك .

– ولكن ما الهدف من كل هذا يا ادوارد ؟ أريد أن أفهم .

– الهدف هو خلق عالم جديد . عالم جديد ينهض على انقاض العالم القديم الفاسد .

– أوضح .

فانطلق يتحدث في حماسة شديدة عن الاهداف التي كرس لها حياته فقال أن العالم تتنازعه قوتان عظيمتان .. هما الرأسمالية والشيوعية . الأولى تحرص على وضعها وتقيم العقبات في طريق التطور الحضاري والثانية تعمل على فرض سيطرتها على العالم ..

هاتان القوتان يجب ان تختفيا . يجب أن تدمر كل منهما الأخرى .. ولا سبيل الى ذلك الا بحرب عالمية تمحو الماضي من أساسه . لكي يقبض الشباب

على زمام الأمر في عالم جديد تماماً .. تحكمه نظم جديدة ومبادىء جديدة.

– ولكن . ألن تذهب هذه الحرب العالمية بأرواح ملايين من الضحـايا الأبرياء ؟

– يجب أن تفهمي انه لا يمكن أقامة نظام جديدة بغير ضحايا .

كان في مقدورها أن تقول الكثير رداً على هذا المنطق السقيم ولكنها أثرت الصمت .. ومضت في لعبتها

قالت :

– كم أنا معجبة بك يا ادوارد ! ولكن ماذا في استطاعتي أنا أن افعل ؟

– هل أنت على استعداد لخدمة أهدافنا ؟

– انني لا أعرف سواك يا ادوارد ، وثقتي بك لا حـــد لها فلك أن تأمر وعلي أن اطيـع .

– هذا حسن .

– حدثني أولاً لماذا جئت بي هنا ؟ لا بد أن يكون هناك سبب ..

– نعم . هناك سبب . هل تذكرين أول لقاء لنا ؟ انني التقطت لـك يومئذ صورتين .

– نعم ، أذكر ذلك .

– لقد ادهشني وجود تشابه عجيب بينك وبين فتـاة أخرى فالتقطت صورتك لكي اتحقق من انني لم اخطىء .

– ومن هي تلك الفتاة التي أشبهها ؟

– هيلين شيل .

– هيلين شيل ؟ أنا اشبه هيلين شيل ؟

ولم تستطع الفتاة اخفاء دهشتها فقال ادوارد :

– ان التشابه ليس قاصراً على المنظر الجانبي والامامي ، ولكنـه يتجاوز ذلك الى وجود ندبة على يمين الشفة العليا لدى كل منكما ..

ــ هذه الندبة هي من أثر سقوطي من فوق شجرة وأنا طفلة .. ولكـني أحجبها دائماً بالدهون والمساحيق .

ان لهيلين شيل ندبة مماثلة .. وهي اكبر منك بنحو أربـع او خمس سنوات ولكنها تماثلك طولاً ووزناً . كل ما هنالك من اختلاف بينكما هـو ان شعرك أسود وشعرها أشقر وان زرقة عينيها أخف من زرقة عينيك . ولكن هذا الاختلاف الأخير يمكن علاجه بالعدسات الملتصقة .

ــ وهل هذا التشابه هو الذي حملك على احضاري الى بغداد ؟

ــ نعم ، فقد قدرت أننا نستطيـع الافادة منه .

ــ ولذلك دبرت الأمر مع مستر كليب وزوجته؟ ولكن من هما بالتحديد؟

ــ امتعان لا اهمية لهما ، يفعلان ما يؤمران به .

يا إلهي ! ما أشد صلفه وغروره

انه معبود نفسه . وذلك ما يجعله انساناً رهيباً .

قالت :

ــ ولكن ألم تقل لي ان هيلين شيل شخصية هامة في منظمتكم ؟

إنما أردت ان أضللك .. فقد كنت تعلمين أموراً كثيرة .

وهنا قالت فكتوريا لنفسها . ان التشابه بينها وبين هيلين شيل ربما قـد أنقذ حياتها .

ومن تكون هيلين شيل هذه ؟

ــ انها السكرتيرة الخاصة للمالي الدولي أوتومورجنتال وهي فتـاة ذات عقلية جبارة . ولدينا من الأسباب ما يحملنا على الاعتقاد بأنهـا تعرف الكثير عن صفقاتنا المالية .. كان هناك ثلاثة أشخاص على جانب عظيم من الخطـورة بالنسبة الينا ، روبرت كروفتون لي ، وكارمايكل . وقد تمت تصفيتهما .. اما هيلين فأنها لا تزال على قيد الحياة .. وينتظر ان تصل الى بغداد خلال ثلاثـة أيام ولكنها الآن مختفية .

– مختفية ؟ أين ؟
– في لندن .
– ألا يعرف أحد مكانها ؟
– ربما كان داكين يعرف ..
– وأنت .. أليست لديك أية فكرة عنها ؟

فقال بعد تردد قصير :

– المفهوم انها يجب ان تحضر الى بغداد للاشتراك في المؤتمر الدولي الذي سيعقد بعد خمسة أيام كما تعلمين .. وقد بحثنا في سجلات الشركات السياحية ووجدنا ان هناك مكاناً محجوزاً في احدى الطائرات باسم سيدة تدعى جريتا هاردن .. وبالاستعلام عن جريتا هاردن وجدنا انه اسم مستعار لسيدة أدلت عن نفسها ببيانات زائفة .. ولذلك فاننا نعتقد أن جريتا هاردن هذه ليست سوى هيلين شيل .

وصمت لحظة ثم استطرد قائلا :

– أن طائرتها ستصل الى دمشق بعد غد .
وبعد ذلك سيتوقف كل شيء عليك أنت .
– علي أنا ؟
– نعم ، لأنك ستحلين محلها .

فتذكرت السير روبرت كروفتون لي . وفر لونها .. لقد لقي السير روبرت مصرعه في عملية مماثلة .. وجاء الآن دور هيلين شيل .

وفكرت فكتوريا في انها إذا رفضت الدور الذي يعرضه عليها ادوارد ، فانه سيرتاب في اخلاصها ويفتك بها . قبل ان تتمكن من الاتصال بداكين واظهاره على اكتشافها الجديد .

كان لزاماً عليها ان تقبل .. فتلك هي فرصتها الوحيدة لامكان الاتصال بداكين .

– تنهدت وقالت :

– ولكني لا استطيع أن اقبل ذلك يا ادوارد .. سيفتضح أمري تواً .. لأنني لا أعرف اللكنة الامريكية .

– ان هيلين شيل تتكلم الانجليزية بغير أية لكنة ..ثم انك ستصابين بمرض في الحلق ، وسيؤيد ذلك طبيب من اكبر اطباء بغداد .

– وماذا يجب علي ان أفعل ؟

– ستغادرين دمشق بصفتك جريتا هاردن وستلازمين فراشك في بغداد بامر الطبيب ، ولا تغادرينه إلا للاشتراك في المؤتمر يوم افتتاحه ،وهناك تقدمين ما معك من وثائق ..

– ووثائق مزيفة بطبيعة الحال ؟

– نعم .. وقد فرغنا من اعدادها .

- وماذا تثبت هذه الوثائق ؟

فابتسم ادوارد وأجاب :

تثبت وجود مؤامرة شيوعية لقلب نظام الحكم في الولايات المتحدة الامريكية .

– وهل تعتقد يا ادوارد أن لدي الكفاءة للقيام بهذا الدور .

– ولم لا . انك بارعة في الكذب .

ولم يسع فكتوريا إلا الاعتراف فيما بينها وبين نفسها بفوائد الكذب . فلولا انها نسبت نفسها كذباً الى أسقف لانجو لما استطاعت أن تميط اللثام عن حقيقة ادوارد .

فقالت :

– والدكتور راثبون .. هل هو ايضاً من زعماء المنظمة ؟

فقلب ادوارد شفته باحتقار وأجاب :

– أن راثبون يطيع ولا يأمر .. هل تعلمين ماذا فعل هذا الاستاذ العظيم؟

لقد ظل طوال سنوات عديدة يختلس لنفسه ثلاثة أرباع الاشتراكات والمعونات التي ترسل للمعهد من شتى انحاء العالم .

انه محتال بارع ، ولكنه أصبح في قبضة يدنا ، وفي استطاعتنا أن نفضحه في أية لحظة . وهو يعلم ذلك جيداً .

وتخيلت فكتوريا بالدكتور راتبون بجبهته العريضة وشعره الأبيض وقالت لنفسها انه ربما كان محتالاً . ولكنه انسان جدير بالشفقة .

ونهض ادوارد وهو يقول :

- آن لنا أن نرحل ، لكي نعد العدة للخطوة التالية :

وكان ذلك هو ما تتوق اليه فكتوريا .. كانت تتوق الى العودة الى بغداد في أقرب وقت . فان الخطر عليها هناك سيكون أقل .

قالت تحدث ادوارد :

- قلت منذ لحظة ان مستر داكين ربما كان يعرف مكان هيلين شيل . أن في استطاعتي أن احمله على الكلام .. والافضاء بمعلوماته عنها ..

- لا أمل في ذلك . ثم انك لن تقابلي داكين .

فأحست فكتوريا كأن قلبها قد كف عن الحركة .. ووجدت من الضروري أن تكذب .. وبجرأة .. قالت :

- ولكني كنت على موعد معه هذا المساء فاذا لم أذهب اليه فقد يرتاب في الأمر ..

- ذلك لا أهمية له في الوقت الحاضر .. لقد أعددنا تخطيطاتنا . ولا ضرورة لبقائك في بغداد .

ولكن أمتعتي كلها في فندق تيو .

كانت تفكر في شملة كارمايكل .

- ان تكوني بحاجة الى امتعتك في الوقت الحاضر . اني اعددت لك زيا

خاصاً .. هلمي بنا .

وأدركت فكتوريا انه كان من الغباء أن تتصور أن ادوارد سيسمح لها بفرصة للاتصال بداكين بعد ان علمت من امره ما علمت .

* * *

وانطلقت بهما السيارة في الطريق الى بغداد .. وساد السكون بينهما فترة طويلة .. الى ان غمغم ادوارد قائلاً وكأنه يحدث نفسه :

ــ لا فارج ! ليتني اعلم لماذا ذكر كارمايكل هذا الاسم !

وسرعان ما تفتق ذهن فكتوريا عن كذبة جديدة .

صاحت :

ــ آه .. نسيت ان أقول لك .. ان رجلاً يدعى لافارج زار حفائر التل الأسود منذ بضعة ايام ..

فصاح ادوارد وقد اختلت عجلة القيادة في يده :

ــ ماذا قلت ؟ متى حدث ذلك ؟

فتظاهرت فكتوريا بالتفكير .. وأجابت بعد لحظة :

ــ منذ نحو ثمانية ايام .. وقد قال انه يبحث عن الآثار في سوريا مع بعثة (بارو) ..

ــ وهل زار الحفائر وأنت هناك رجلان يدعى أحدهما اندريو والآخر جو فيه ؟

ــ نعم .. وأذكر ان أحدهما أصيب بألم في معدته .

ــ لقد كانا من اتباعنا ..

ــ وهل أرسلتهما للبحث عني ؟

ــ كلا فأنني لم أكن أعرف مكانك .. ولكن حدث ان ريتشارد بيكر

كان في البصرة في نفس الوقت مع كارمايكل ، فخطر لنا ان كارمايكل ربما قد اودع لديه بعض الوثائق التي تهمنا .

– آه .. هذا يفسر شكوى بيكر من أن بعضهم عبث بأمتعته .. هل وجد الرجلان أم بعدهما ؟

فتظاهرت بالتفكير وأجابت :

– قبلهما .. بنحو اربع وعشرين ساعة .

– وماذا فعل ؟

– تفقد الحفائر مع الدكتور بونسفوت جونز ثم رافق بيكر الى المنزل لزيارة مخزن الآثار .

– وهل دار حديث بين لافارج وبيكر ؟

– لا أعلم . فانني كنت في قاعة التصوير ..

– ليتني أعلم من يكون لافارج هذا . هل تستطيعين وصفه ؟

– انه طويل القامة نحيف الجسم ، اسود شعر الرأس ، شاحب اللون .

فتنهد ادوارد ولزم الصمت ..

وأوقف ادوارد السيارة أمام (فيلا) في الحي الأوروبي خارج بغداد ، ودق جرس الباب ففتحته امرأة قصيرة القامة شاحبة الوجه .

وتبادل ادوارد مع المرأة بعض العبارات باللغة الفرنسية ، فذهبت المرأة بفكتوريا الى أحدى غرف النوم .. وبعد نحو نصف ساعة ، خرجت المرأتان من الغرفة وهما ترتديان ثياب الراهبات وفي كل منهما مسبحة .

ونظر ادوارد الى فكتوريا وصاح وهو يبتسم :

– انك أجمل راهبة رأيتها في حياتي .. انما ينبغي أن ترخي اهدابك وتنكسي رأسك وخاصة امام الرجال .

ثم رافق المرأتين الى سيارة كانت تنتظر بالباب وقال يحدث فكتوريا .

– كل شيء الآن يتوقف عليك يا فكتوريا .. فافعلي كل ما يطلب اليك ..

ـ ألا تأتي معنا ؟

ـ كلا . ولكننا سنلتقي فيما بعد .

ثم أدنى رأسه منها وقال بصوت عذب :

ـ انني أعتمد عليك أيتها الحبيبة .. فهـذا دور لا يستطيع القيام به سواك .. أن اوراقك كاملة ولن تصادفك متاعب عند الحدود ، وبهـذه المناسبة .. انت الآن الأخت ماري دايزانج .. وهذه هي الأخت تيريز .. انها ستهتم بكل شيء .. وعليك بطاعتها .

قال ذلك . ثم اومأ الى سائق السيارة فأدار محركها وما هي إلا لحظة حتى كانت تطوي الأرض طيا .

وفكرت فكتوريا في انها ربما تستطيع الاستغاثة في شوارع بغـداد ، أو عند الحدود .. ولكنها ما كادت ترى المسدس الذي وضعته زميلتها في كم ثوبها حتى اقلعت عن التفكير في الاستغاثة .

الفصل الثالث والعشرون

- ١ -

هبطت الطائرة الضخمة ، بسلام ، وغادرها ركابها .. وكان بينهم اربعة اشخاص يقصدون الى بغداد ويتعين عليهم أن يستلقوا طائرة أخرى ، بعد عرض جوازاتهم على الموظف المسؤول .

وأحد هؤلاء الأربعة رجل عربي بدين يبدو انه تاجر عراقي، والثاني طبيب انجليزي شاب وسيدتان .

وتقدمت احدى السيدتان من الموظف المختص ، فتناول جواز سفرها .. وقال وهو يتصفحه :

- مدام بونسفورت جونز ؟ انجليزية ؟ هل ستلتحقين بزوجك ؟ حسناً .. ما عنوانك في بغداد ؟ شكراً .. كم معك من النقود ؟

وتقدمت الثانية ، وكانت في مقتبل العمر ، شقراء نحيفة ، فتناول الموظف جواز سفرها . وقال وهو يتصفحه :

- مدموزيل جريتا هاردن ؟ دانمركية ، قادمة من لندن ؟ ما عنوانك في بغداد ؟ شكراً .. كم معك من النقود ؟

* * *

وقيل للمسافرين الأربعة ان الطائرة ستقلع في المساء . وان هناك سيارة ستقلهم الى الفندق العباسي ، حيث يتناولون طعام الغذاء ويلتمسون بعض الراحة . .

* * *

وفي الفندق العباسي ، تمددت جريتا هاردن في فراشها ، وكانت بسبيل تصفح أحدى المجلات حين سمعت طرقاً على الباب ، ففتحه ووجدت أمامها مضيفة تضع على صدرها شارة شركة الطيران . قالت المضيفة :

- يؤسفني أن أزعجك يا موموزيل هاردن .. ولكن يبدو أن هناك خطأ في تذكرة سفرك .. ان الأمر بسيط على كل حال . فهلا تفضلت معي الى مكتب الشركة في الفندق ؟ انه في آخر الدهليز . .

ولم تكد جريتا تدخل غرفة على بابها لوحة تحمل كلمة (مكتب) — وقد اختفت هذه اللوحة في اللحظة التالية - حتى وضعت على فمها كامة ، والقى على رأسها كيس من القماش الأسود . وأمسك بها رجلان ليمنعاها من الحركة ، وتقدم ثالث يبدو انه طبيب فكشف عن ذراعها وأغمد فيه ابرة . وبعد ثلاثين ثانية غابت الفتاة عن وعيها تماماً . .

قال الطبيب :

— لن تفيق قبل ست ساعات . .

ثم فتح باباً وأطل منه وقال :

— تعاليا . .

فدخلت امرأتان ترتديان ثياب الراهبات . . وانصرف الرجال الثلاثة . .

وعلى الفور تبادلت أصغر الراهبتين ثيابها مع جريتا هاردن ، وأقبلت الراهبة الثانية فقصت شعر زميلتها على نحو ما تفعل هيلين بشعرها ،واستعانت في ذلك بصورة فوتوغرافية كانت معها وما أن فرغت من ذلك حتى دق الباب

ودخل الرجال الثلاثة وعلى وجوهم دلائل الارتياح .

قال الطبيب :

– ليس ثمة شك في أن جريتا هي هيلين شيل ... فقد وجدنا أوراقها مخبأة في حقيبها وسط حزمة من المجلات .

ثم انحنى باحترام أمام فكتوريا وقال :

– والآن يا آنسة هايدن ، هل تشرفينني بتناول طعام الغذاء معي ؟

وتبعته فكتويا .

ولم يكن في بهو الفندق سوى سيدة تتحدث الى موظف الاستقبال .

كانت تقول له :

– كلا . ان صيغة البرقية لا غبار عليها .. (سأكون في فندق تيو ،الف قبلة) . ولكن التوقيع خطأ . الاسم هو : بونسفوت جونز . بونسفوت .

ونظرت فكتوريا الى السيدة من ركن عينها .

إذن فهذه هي زوجة الدكتور بونسفوت جونز ؟ ليتها تستطيع أن تعهد اليها برسالة لريتشارد بيكر !

ورأت فكتوريا زوجة الدكتور مرة أخرى في قاعة الطعام ، ومرة ثالثة في الطائرة التي أقلتها الى بغداد ولكن لم تسنح لها قط فرصة للاتصال بها .

– ٢ –

قال بيكر ..

– الحق انني قلق على هذه الصغيرة .

فقال الدكتور بونسفوت جونز وهو شارد الذهن :

– أية صغيرة ؟

فكتوريا .

فقطب الدكتور ما بين حاجبيه وقال باهتمام :

هذا صحيح .. الواقع انك عدت أمس بدونها .

لم يكن في نيتها العودة على كل حال . لأنها ليست فيرونيكا سافيل .

– آه .. هذا عجيب ! ولكن الم تقل لي ان اسمها فكتوريا ؟

– ان اسمها فكتوريا .. ولكنهـــا لم تعرف قط الدكتور ايمرسون ، ولم تدرس في يوم ما تاريخ الأجناس البشرية . كان هناك سوء تفاهم .

– هذا أمر يؤسف له .. الواقع ان شرود ذهني أصبح لا يحتمـــل .. أصبحت لا أذكر ما يقال أمامي وافقد الرسائـل التي ترد الي .. ومن هنا ينشأ سوء التفاهم .

واستطرد بيكر مسترسلاً مع تأملاته :

– قيل لي أنها خرجت مع شاب في سيارة ولم يرها أحد بعد ذلك وحقائبها لا تزال في الفنادق ولم تكلف فكتوريا نفسها عناء فتحها .. خاصة وانهـا قضت عندنا عدة أيام وكانت في أشد الحاجة إلى استبدال ثيابها .. يضاف إلى كل ذلك انني كنت على موعد معها لتناول الغداء .. الحق انني لا أكاد أفهم .. كل ما أرجوه ألا يكون أصابها سوء .

– يخيل اليّ انك تزعج نفسك بلا مبرر .

– لقد اختطفوها مرة .. ومن المحتمل أن يكونوا قد اختطفوهـا مرة أخرى

– هذا أمر بعيد الاحتمال يا بني .. فالأمن والهدوء يسودان البلاد .

– ليتني فقط اذكر اسم ذلك الرجل الذي يعمل في شركة البترول ! اسمه ديكون ؟ داكين ؟. شيء من هذا القبيل .

وصمت لحظة ثم استطرد قائلاً :

– هل يضايقك يا دكتور أن أذهب إلى بغداد غداً ؟

– غداً ؟ ولكنك كنت هناك أمس .
– ولكني في أشد حالات القلق ..
– لماذا كتمت الأمر عني يا ريتشارد ؟
– أي أمر ؟
– لم أكن أعلم انك مهتم بأمر الفتاة إلى هذا الحد ، هذه هي المتاعب التي تنشأ عن اشتراك النساء في أعمال البعثة .. خاصة إذا كن على شيء من الجمال .. هذه أول مرة أراك فيها تهتم بامرأة

فاحمر وجه بيكر وقال :

– انني لم أقع في حبها .. ولكني قلق عليها .. ويجب أن أذهب إلى بغداد .

– إذهب إذن .. وحبذا لو انتهزت الفرصة وأحضرت معك الفؤوس التي نسيها السائق أمس .

ورحل بيكر في الفجر .. ووصل إلى بغداد في الساعة الثامنة صباحاً وقصد تواً إلى فندق تيو وسأل عن فكتوريا وعلم أنها لم تعد .

وقال له ماركوس :

– هذا غريب .. حقاً .. لقد وعدتني بأن تتناول العشاء معي فأعددت لها مأدبة لا مثيل لها .

– هل أبلغت البوليس ؟
– كلا .. ان ذلك قد يضايقها .. ومن المحقق أن يضايقني كذلك .

ولم يجد بيكر صعوبة في معرفة عنوان داكين فذهب اليه في مكتبه .. ووجد انه كان على صواب حين عرفه من مجرد وصف فكتوريا له .

سأله عما إذا كان قد رأى فكتوريا فأجاب :

– إنها جاءت لمقابلتي أمس الأول .

– هل تستطيع أن تدلني على عنوانها حالياً ؟

ـ كل ما أعلمه أنها تقيم في فندق تيو .

ـ ان حقائبها هناك ولكنها اختفت .

فقطب داكين حاجبيه .

قال بيكر :

ـ إنها عملت معنا بضعة أيام في حفائر التل الأسود .

ـ فهمت .. ولكن لسوء الحظ ليست لديّ معلومات عنها. ان لها أصدقاء في بغداد ولكني لا أعرفهم .

ـ ألا يحتمل أن تكون في غصن الزيتون ؟

ـ لا أظن ذلك ، في استطاعتك أن تسأل ..

فنهض بيكر وهو يقول :

ـ على كل حال ، لن أغادر بغداد قبل أن أجدها .

ورمق داكين بنظرة تنم عن السخط وانصرف وعاد أدراجه إلى فندق تيو ووجد ماركوس في الصالة ووجهه يطفح بشراً فانتعشت آماله وهتف :

ـ هل عادت ؟

ـ كلا .. ولكني علمت بنبأ قدوم مسز بونسفوت جونز .. إنها الآن في المطار ، رغم أن الدكتور بونسفوت أكد لي أنها لن تحضر قبل أسبوع .

ـ أنه لا يذكر من التواريخ إلا ما يتصل بالعصور القديمة .. أما من نبأ عن فكتوريا ؟

فارتسم الحزن على وجه ماركوس وأجاب :

ـ كلا .. وهذا أمر مزعج .. انها فتاة ظريفة .. ومرحة ..

فتنهد بيكر وأجاب :

ـ أظن أنه يحسن بي أن انتظر مسز بونسفوت جونز لأقدم لها تحياتي ..

- ٣ -

ـ أنت ؟

كان صوت فكتوريا يعبر عن كل ما يعتمل في نفسها من حقد وبغض ..

ذلك أنها ما كادت تدخل الغرفة التي حجزت لها في فندق بابـــل حتى وجدت كاترين في انتظارها .

وأجابت كاترين بنفس الحقد :

ـ نعم أنا .. تمددي هنا فسيأتي الطبيب في التو واللحظة .

وكانت كاترين ترتدي ثياب الممرضات .. وكل حركاتها تدل على انهـا لا تنوي أن تدع فكتوريا تغيب عن بصرها لحظة واحدة .

وتمددت فكتوريا على الفراش وهي تقول بصوت خافت :

ـ إذا قلت أن ادوارد في قبضة يدي فأنني أعني ما أقول .

فضحكت كاترين وصاحت :

ـ ادوارد ؟ أيتها الانجليزية البلهاء .. ان ادوارد لا يحب احداً سواي .

ثم انحنت فوق الفراش وهتفت :

ـ لقد كرهتك منذ وقع بصري عليك لأول مرة . انني أبغضـــك .. ابغضك .. هل فهمت ؟

فقالت فكتوريا لتغيظها :

ـ المهم .. انه لا غناء له عني .. أما أنت فانك مجرد ممرضة .. تستطيع أي فتاة أخرى أن تقوم بدورها .. ان كل شيء يتوقف علي أنا يا كاترين ..

فهزت كاترين كتفيها وأجابت :

ـ يجب أن تعلمي انه لا يوجد إنسان لا يمكن الاستغناء عنه .

ـ أنا ذلك الانسان .. قولي لهم انني أريد طعاماً ممتازاً يليق بسكرتيرة

مليونير أمريكي .

ــ حسناً .. اضحكي طالما ذلك في استطاعتك .

وكانت إجابتها حافلة بالتهديد .. ولكن فكتوريا لم تلق اليها بالاً .

ـ ٤ ـ

اقترب الكابتن كروسبي من مكتب موظف الاستقبال بفندق بابل وسأله :

ــ هل الآنسة جريتا هاردن في غرفتها ؟

فأطرق الموظف برأسه وأجاب :

ــ نعم يا سيدي .. لقد وصلت من انجلترا في التو واللحظة ..

ــ انها صديقة اختي .. هل لك أن ترسل بطاقتي اليها ؟

وأخرج من جيبه بطاقة كتب عليها بضع كلمات ووضعها في غلاف ..

وبعد فترة ، عاد الخادم الذي حمل البطاقة وقال :

ــ إن الآنسة هارون لا تستطيع استقبالك يا سيدي ، فانها مصابة بمرض في حلقها ، وتلازم الفراش .. إنها تنتظر الطبيب ومعها إحدى الممرضات .

فانصرف الكابتن كروسبي ، وقصد إلى فندق تيو ، وهناك بادره ماركوس قائلاً :

ــ انني ادعوك لتناول بعض الويسكي . إن الفندق حافل بالنزلاء بسبب المؤتمر ، وقد اضطررت إلى التخلص من أحد موظفي الأمم المتحدة لكي أفسح مكاناً لمسز بونسفوت جونز .. انها جد غاضبة لأنها لم تجد زوجها في انتظارها الواقع أن الدكتور رجل ظريف ولكنه كثير النسيان ..

ــ أن انطباعي عن بغداد الليلة انها تعيش فترة جنون .

ــ هذا صحيح .. ويبدو أنهم اكتشفوا مؤامرة ضد بعض أعضاء المؤتمر ، وقد القوا القبض على خمسة وستين طالباً .

- ٥ -

دق جرس التليفون ، فتناول سكرتير السفارة السماعة وقال :

— هنا السفارة الأمريكية .

الآنسة هيلين شيل ؟ هل استطيع التحدث اليها ؟

— هنا فندق بابل .. الآنسة هيلين شيل موجودة بالفندق .

— انها مريضة في فراشها ، وأنا الدكتور سمولبروك طبيبها .. تقول الآنسة ان معها وثائق هامة تريد تسليمها إلى مسؤول في السفارة هل ستوفد اليها رسولاً ؟ الآن ؟ حسناً .. انها في الانتظار .. شكراً .

- ٦ -

ارتدت فكتوريا ثوباً انيقاً ، ونظرت الى نفسها في المرآة ووجدت شعرها الأسود مقبولاً .

وفجأة ، نظرت خلفها فرأت كاترين تتأملها بعينين تتألقان سروراً فاحست بالدهشة والقلق وسألتها :

— ما سبب اغتباطك ؟

— ستعلمين في التو واللحظة .

وكان صوتها مليئاً بالاحتقار .

واستطردت قائلة :

— اما زلت تعتقدين ان كل شيء يتوقف عليك ؟ يا لك من حمقاء !!

فانقضت عليها فكتوريا ونشبت اظافرها في كتفيها وهي تصيح .

– اوضحي ايتها الشقية . ماذا تعنين ؟
– دعيني .. انك تؤلمينني .
– تكلمي ..
وفي هذه اللحظة . دق الباب ثلاث مرات بطريقة خاصة فقـالت كاترين وعيناها تتألقان :
– ستعلمين الان كل شيء ..
وفتح الباب ودخل رجل طويل القامة يرتدي ثياب البوليس الدولي ..
واغلق الرجل الباب ووضع مفتاحه في جيبه وقال يحدث كاترين :
– هلمي يجب ان نعمل بسرعة ..
فجلست كاترين على احد المقاعد ، وشد الرجل وثاقها جيداً وكمم فمها .. ثم وقف منها على بعد خطوتين وتأملها وقال :
– هذا رائع .
ثم تحول الى فكتوريا فرأت هذه والرعب يملأ قلبها ان في يده مطرقة ..
وبأسرع من لمح البصر فهمت كل شيء .
فهمت انه لم تكن هناك اية نية لجعلها تقوم بدور هيلين في المؤتمر .. ان قيامها بهذا الدور كان ينطوي على خطورة شديدة . لأن الكثيرين في بغداد يعرفونها شخصياً بصفتها فكتوريا جونز ..
لذلك تفتقت اذهانهم عن فكرة افضل . هي ان تقتل هيلين شيل في آخر لحظة ويشوه وجهها بحيث لا يتعرف عليها احد ..
وهكذا تكتشف جثة هيلين في غرفتهـــا ، ونكتشف معها الوثائق التي جاءت بها . وهي بطبيعة الحال وثائق زائفة اصطنعها اعوان ادوارد ..

* * *

وتقدم منها الرجل وعلى شفتيه ابتسامة وحشية فاندفعت نحو النافذة وهي تصرخ .

وسمعت فكتوريا صوت زجاج يتحطم . واحست بضربة تزلزل كيانهـــا .. وفقدت الوعي .

- ٧ -

تناول داكين السماعة وقال :
- انني مصغ ..
- انتهت العملية بنجاح تام .
- حسنا ..
- اعتقلنا الطبيب وكاترين سركيس ، وفر الرجل الآخر من النافذة .. ولكنه اعتقل عند باب الفندق .
- هل جرحت الفتاة ؟
- كلا .. اصيبت بضربة .. واغمي عليها ..
- هل ثمة انباء عن هـ . ش الحقيقية ؟
- كلا ..
فوضع داكين السماعة ..

لقد نجت فكتوريا .. وهذا امر له اهميته .. اما هيلين شيل .. فلا بد انها ماتت . لقد اصرت على ان يدعوها وشأنها . ووعدت بأن تكون في بغداد يوم ١٩ . واليوم هو التاسع عشر . ولم تظهر . ان . اختفاءها سوف يضعف قضيته . لأنه كان يعتمد عليها كل الاعتماد في اماطة اللثام عن ركن هـام من أركان المؤامرة الرهيبة التي تستهدف اشعال حرب بين القوتين الأعظم.لا تبقي ولا تذر .

ودخل الخادم وقدم اليه ورقة عليها اسم ريتشارد بيكر ومسز بونسفوت جونز ..

وقرأ داكين الاسمين وقال في ضيق :

ــ قل لهما انني آسف . ولا استطيع استقبالهما .

فانصرف الخادم وعاد بعد لحظة وبيده رسالةوفض داكين الغلاف ووجد قصاصة كتبت عليها هذه الكلمات :

اود ان احدثك عن كارميكل .

قال :

ــ دعهما يدخلان ..

ودخل الزائران ، وجلسا ، وتحدث بيكر في الموضوع مباشرة .. قال :

ــ سأتكلم بايجاز اقتصاداً للوقت .. فقد اتفق انني كنت زميلاً في الدراسة لشخص يدعى هنري كارميكل ثم افترقنا ، ومضت عدة اعوام لم نلتق خلالها .. ورأيته اخيراً بدار القنصلية البريطانية في البصرة وكان متنكراً في زي عربي ، فعرفني واستطاع التفاهم معي . فهل يهمك هذا الموضوع ؟

ــ الى اقصى حد .

ــ لقد فهمت منه انه في خطروبعد بضع دقائقحاول رجل اطلاق الرصاص عليه . ولكني جردته من مسدسه ، وتمكن كارميكل من الفرار .. ولكني لاحظت فيما بعد ، انه دس في جيبي ورقة يبدو من ظاهرها ان لا اهمية لها . ولكني قررت ان اتصرف كما لو كانت لهذه الورقة كل الأهمية بالنسبة الى كارميكل . واحتفظت بها على امل ان يعود كارميكل ذات يوم للمطالبة بها .. ولكني علمت من فكتوريا جونز منذ ايام ان كارميكل لقي مصرعه ، وفهمت من ملابسات اخرى انه اذا كان هناك انسان من حقه ان يحصل على هذه الورقة فذلك الانسان هو انت ..

ها هي الورقة ..

قال ذلك ووضع الوثيقة على مكتب داكين . واستطرد قائلاً :

ــ هل لها اية اهمية ..

ــ انها أهم مما تتصور يا بيكر .. وانا لا اعرف كيف اشكرك . وقد

كنت اود ان يطول هذا اللقاء . لولا ان لدي من المهام البالغة الخطورة ما يمنعني من ان اضيع دقيقة واحدة ..

وشد على يد بيكر ، وقال وهو يصافح مسز بونسفوت جونز ..

لاشك انك ستلحقين بزوجك العظيم في حفائر التل الأسود ؟ انني اتمنى لبعثته كل نجاح وتوفيق .

فقال بيكر :

—من حسن الحظ ان الدكتور بونسفوت جونز لم يحضر معي الى بغداد اليوم انه عادة لا يلاحظ شيئاً مما يدور حوله ، ولكن من المحقق انه كان سيلاحظ وجود بعض الفوارق والاختلافات بين زوجته وشقيقتها .

فبهت داكين ، ونظر الى مسز بونسفوت جونز ، التي قالت بصوت رقيق :

— ان اختي ايلزا لا تزال في انجلترا ، وقد صبغت شعري واستخدمت جواز سفرها .. ان مسز بونسفوت جونز قبل زواجها كانت تدعى ايلزا شيل اما انا يا مستر داكين فانني هيلين شيل ..

الفصل الرابع والعشرون

لم تشهد شوارع بغداد من رجال الشرطة مثل العدد الذي شهدته يوم افتتاح المؤتمر ..

وفي احد قطاعـــات قصر نائب الملك اجتمعت احدى لجـــان المؤتمر لاستعراض الأخطار التي تهدد السلام العالمي .

وافتتح الجلسة الدكتور آلان بريك مدير معهد الذرة في هارديل ، فالقى كلمة موجزة مؤيدة بالوثائق ، تحدث فيها عن عينات التربة التي احضرهـــا السير روبرت كررفتون لي من الصين وتركستان والعراق واثبت التحليل انها غنية بمعدن اليورانيوم ..

ثم تكلم داكين ، فروى قصة كارميكل . الرجل لم يسخر من الشائعـات القائلة بوجود مصانع هائلة في مناطق مهجورة بعيدة عن الحضارة والعمران ، فخاطر بحياته للتحقيق من صحة هذه الشائعات .

ثم قال :

— لقد ذهب كارميكل . وذهب السير روبرت كرففتون لي . ولكن بقي شخص يستطيع انيميط اللثام عن حقائق مذهلة . فارجو ان تصغوا اليه انه الانسة هيلين شيل ..

وبهدوء ورباطة جأش ، تكلمت هيلين شيل كما كانت تتكلم في مكتب مورجنتال . فذكرت اسماء وارقاماً واوضحت كيف استطاعت احدى المنظمات ان تستنزف مبالغ جسيمة من شتى انحاء العالم لتمويل مشروعاتها التي تهدف الى بذر الشقاق بين كتلتين من الدول وتأليب كل منهما على الأخرى لاشعال نار حرب عالمية مدمرة ..

وعقب داكين على حديثها فقال ان كارميكل قد جاء بالأدلة ولكنه لم يحتفظ بها معه خوفاً من ان تقع في ايدي اعداء كان يعلم انهم يترصدونه في كل ركن .. وانما تركها وديعة لدى واحد من اصدقائه . هو الشيخ حسن الزيارة ، من كبار علماء المسلمين في كربلاء . ونهض الشيخ الوقور حسن الزيارة ، فقال انه عرف كارميكل منذ كان طفلاً ، وعلمه قواعد اللغة وشرح له الكثير من قصائد الشعراء القدامى والمحدثين .. ثم حدث منذ بضعة اسابيع ان جاءه رجلان يعرضان صوراً في صندوق ، وقدما اليه حزمة صغيرة قالا انها من لدن كارميكل ، وان هذا الأخير يطلب اليه ان يكتم امرها ويحتفظ بها فلا يسلمها الا لمن يقول بيتاً معيناً من الشعر .

وهنا قال داكين :

– انه بيت قاله احد الشعراء في مدح سيف الدولة امير حلب .

فابتسم الشيخ وقال :

– هو ذاك .. اليك الحزمة .

فقال داكين وهو يتناول الحزمة .

– ان في هذه الحزمة مجموعة من الأفلام سجل فيها كارميكل صور المصانع التي شاهدها .. والرأي عندي ان يقدم هذه الجلسة وصور من وثائق كارميكل وهيلين شيل الى رؤساء الوفود التي تشترك في المؤتمر ..

الفصل الخامس والعشرون

قالت فكتوريا :

– ليس هناك ما يؤلمني ويحز في نفسي سوى مصرع الفتاة الدنيمركية المسكينة التي لقيت حتفها في دمشق .

فأجاب داكين وهو يبتسم :

– هل تعنين الآنسة جريتا هاردن ؟ انها لا تزال على قيد الحيـاة وتتمتع بصحة جيدة ، ولم يكن هناك خطر على حياتها طوال فترة انعقـاد المؤتمر لقد نقلناها الى المستشفى واعتقلنا المرأة الفرنسية التي كانت تتنكر في زي راهبة ..

ولعل من تحصيل الحاصل ان اقول لك ان جريتا هاردن تعمل معنا .

– احقاً تقول ؟

– نعم .. لقد راينا بعد اختفاء هيلين شيل ان نضلل خصومنا .. فحجزنا مكاناً في الطائرة لجريتا هاردن ، واحطناها بالغموض وزودناهـــا بأوراق مزيفة لايهام الخصوم بأنها هيلين شيل ونجحت الحيلة ..

– هل صحيح انني تحت حراسة اعوانك طوال الوقت ؟

– نعم .. والواقع اننا ارتبنا في نشاط ادوارد قبل ان يغـادر لندن ، ولما رويت لي قصتك عقب مصرع كارميكل لم اجد وسيلة افضل للمحـــافظة على

حياتك افضل من الحاقك بالعمل معي .. وكان رأيي في ذلك ان ادوارد متى عرف صلتك بي ، فأنه سوف يبقي عليك ليضللنا بالمعلومات الزائفة التي يفضي بها اليك وهو يعلم انك ستنقليها الينا .

ولكن موقفه حيالك تغير تماماً وجد انك اكتشفت ان احد اعوانه انتحل شخصية السير روبرت فقرر تصفيتك .

– انني اشعر برعدة كلما فكرت في المآرق التي تورطت فيها ..

فابتسم داكين وقال :

– في استطاعتك الان ان تطمئني .. فقد اعتقلنا ادوارد واعوانه جميعاً ..

– والدكتور راتبون ؟

– انه انصاع لأدوارد خوفاً من الفضيحة .. ولكنه اعترف بالاختلاس ، وعبر عن اسفه واستعداده للتكفير عن اخطائه .

– اعلم انه ليس من حقي ان اسأل . ولكني اريد ان أعرف هل اوفدت من احد شملة كارميكل ؟

- كانت الشملة متممة للوثيقة التي دسها كارميكل في جيب ريتشارد بيكر .. ففي الشملة وجدنا اسم الشيخ حـ ن الزيارة ، وفي الوثيقة وجدنا كلمة السر . او بيت الشعر الذي بمقتضاه اعطانا الشيخ حزمة الأفلام .

- اليس من المصادفات العجيبة ان يكون نصف السر معي ونصفه الآخر مع ريتشارد بيكر ؟

فابتسم داكين وقال :

– بهذه المناسبة . هل لي ان اسألك ماذا في نيتك ان تفعلي الآن ؟

– سأبحث عن عمل .. وبسرعة ..

– لا تجهدي نفسك في البحث . يخيل الي ان هناك عملاً في انتظارك ..

وتركها ومضى ، وعلى شفتيه ابتسامة غامضة ..

وما هي الا لحظة حتى أقبل بيكر وجلس في المقعد الذي تركه داكين في التو واللحظة ..

قال :

– اصغي الي يا فكتوريا .. لقد علمنا ان فيرونيكا سافيل اصيبت بمرض يمنعها من القدوم . فهل تعودين انت للعمل معنا ؟

– اتريدونني حقاً ؟

– سنكون سعداء اذا وافقت ..

– انني اوافق بكل سرور .

– اذن لم يبق الا ان تعدي حقائبك .. هلمي بنا ..

* * *

قال الدكتور بونسفوت حالما رآها .

– اهذه انت يا فيرونيكا ؟ لقد اصيب ريتشارد بخبل بعد رحيلك .. ولكن كل شيء قد انتهى الآن . واني لأرجو لكما السعادة والتوفيق .

فنظرت فيكتوريا الى ريتشارد ..ونظر ريتشارداليها واحمر وجهها ..

– تمت –